
روايات مصرية للجيب
32
ما وراء الطبيعة
أسطورة رفعت !
www.dvd4arab.com
Hany3H

مقدمة

قال (كراكوس) وهو يشعل عود الثقاب .. ويدنيه من الدمية :

ـ « إن هناك أشياء مرعبةً فى هذا العالم يا زميلى .. لكنهم يقولون ـ وهم على حق ـ إن مالا تعرفه لن يؤذيك .. »

قلت له وأنا أرقب اللهب يتوهج فى القماش :

ـ هذا خطأ .. إن ما أعرفه هو ما لن يؤذينى .. »

ورحت أرمق ضوء الشموع يتوهج فى محاجر الجماجم السبع .. وشعرت بقلق غريب .. إن هذه الدمية تشبهنى إلى حدّ غير عادى ..

فلا توجد دمى كثيرة صلعاء ناحلة ترتدى العوينات ، ويبدو عليها السقم ..

قال (كراكوس) وأنيابه تلتمع بين شفتيه المتآكلتين :

ـ « يقولون إنك رأيت كثيرًا جدًا فى سنى عمرك السبعين .. »

ـ « أكثر من أسماك المحيط .. »

ورحت أرمق الدمية التى تتوهج باللهب رويدًا :
ربما - برغم كل شىء - لم تكن هذه الدمية تمثلنى .. ولو كانت تمثلنى ربما هى ليست (فتيش) حقيقيًا .. آمل هذا وأتمناه ...

قال (كراكوس) - كأنما لا يلاحظ توترى - وهو يطفئ العود :

- « إن أشنع مسخ يمكن للمرء أن يلقاه هو نفسه ! »
قلت مؤمنًا على كلامه :

- « أنا قابلت نفسى فى عام ١٩٧٠ .. وكانت لهذا قصة غريبة .. اسمح لى أن أحكيها لك .. »
وفى سرى تمنيت أن يكفى الوقت الباقى لى لذلك ....

سأحكى القصة لـ (كراكوس) .. وستسمعونها معه ..

أعتقد أنكم ستحبونها .. أو - على الأقل - لن تثير مللكم ...

هذا لو استطعت أن أكملها حقًا !

★ ★ ★

١ - لقـــاء مع نفســـى !!

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم .. لهذا لن تكون مبالغة منى لو ابتعت زجاجتى مياه غازية ، وقطعتين من (الجاتوه) استعدادًا للقاء كهذا !

★ ★ ★

أعتقد أن ما سيحدث ليس غريبًا على أكثركم ..
إن من قرءوا منكم (بعد منتصف الليل) - وأرجو أن يكونوا كثيرين - يذكرون بلا شك تلك المكالمة الهاتفية التى تلقيتها على الهواء فى الإذاعة ..
إنها مكالمة طريفة بعض الشىء .. فصاحبها يتكلم بصوتى .. وله اسمى نفسه ..
ويستعرض أخصَ ذكرياتى التى يعرفها جميعًا ..
لاحظوا أنه لا أحد يعرف ما تعرفون أنتم .. فالأحداث جرت عام ١٩٧٠ ، وأنا لم أمسك القلم لأكتب ذكرياتى إلا عام ١٩٩٢
لهذا بدا لى الأمر غريبًا .. لا يمكن تفسيره بمزحه

أو معاكسة هاتفية .. وكان البت فى الأمر مستحيلاً وقتها ..

لهذا اقترح المذيع (شريف السعدنى) - وهو شاب لامع إلى درجة لا تطاق - أن يتم لقاء بيننا .. وقررت أن يتم اللقاء فى شقتى ..

إن الذى اتصل بى يزعم أنه هو (رفعت إسماعيل) الحقيقى .. وهو أمر أرحب به فقط لو قال لى من أكون أنا ؟ لا أحب أن ينتزع منى أحد هويتى ليتركنى بلا هوية .. ثم إنه لا يوجد حافز قوى لدى أى إنسان كى يتقمص شخصيتى .. فأنا لا أملك ثروة ولا نفوذًا .. فقط أملك جعبة هائلة من المتاعب والعيوب والذكريات الرهيبة ..

فمن يريد مشاركتى فى كيس الأفاعى هذا ؟

هذا هو الموقف الذى بدأت به القصة ..

ولكن كيف عساها تنتهى ؟

* * *

فى شقتى العامرة ..

الساعة تقترب من السابعة مساءً ..

هأنذا أعدّ الاستعدادات الأخيرة لاستقبال ضيفى ..

لو كان هو أنا حقًا فمن السهل أن أرحب به كما ينبغى .. فأنا أعرف ما أحب .. أدير أسطوانة لـ (عبد الوهاب) فى قصيدة قديمة ، وأضع علبة تبغ على المنضدة أمامه ، وأعد أكواب الشاى - هو لا يحب الأقداح مثلى - والقهوة ولا بأس بزجاجة (كولا) .. إنها رباعية اللون الأسود التى يتحدث عنها أطباء القلب : الشاى - القهوة - الكولا - الدخان .. والتى يندر ألا يحبها مرضى الشرايين التاجية ، وتقودهم إلى القبر أو العناية المركزة أيهما أسرع ..

كل شىء جاهز .. أكواب الشاى والأقداح مغسولة ومقلوبة على (رُخامة) المطبخ .. والبراد ملىء ومستعدّ للعمل .. والمياه الغازية فى الثلاجة ..

ولا بأس بعود من البخور يزيل رائحة شقتى الخانقة ...

لماذا احتفى به إلى هذا الحدّ ؟ سؤال سخيف ..

لأنه أنا .. هذا مفهوم وواضح تمامًا ..

كنت أدرك من البداية أن الأمر سيكون خارقًا للعادة .. سيكون شيئًا من عالم ما وراء الطبيعة ..

أدركت هذا وتمنيته ...

ودعوت الله ألاّ يسفر انتظارى عن أمر مبتذل ، كأن تكون مزحة سخيفة أو حيلة نصّاب .. ولو أن هذا مستبعد لأن كل مزحة لها حدود لا تستطيع تجاوزها ..

وهذا هو ما جعلنى أومن بأن ما ينتظرنى هو حدث جلل .. حدث يستحق أن أحتفل به بالاحترام والوقار الضروريين ..

★ ★ ★

وهكذا رحت أطالع بعض المجلاّت ، وأنتظر أن يدق جرس بابى ...

ذهنى كان فرسًا جموحًا يأبى أن تضع فوقه سرج التركيز .. فكلما حاولت أن أروّضه ليفهم ما يقرأ ، كان يفرّ منى .. ويركل .. ويصهل .. ويرمح فى سهول الشرود الإنسانى حيث تتناثر أشجار التساؤلات :

كيف ؟ من ؟ لماذا ؟

هل يمكن أن ألقى نفسى حقًا ؟

إن هناك تقسيمات متعددة لا أستطيع التفكير فى خير منها .. وكعادتى فى ترتيب أفكارى أمسكت بالورقة والقلم وبدأت التدوين حتى لا تفلت الأفكار منى :

١ ـ فرضية الجنون : هى أفضل الفرضيات ها هنا .. إننى قرأت الكثير من روايات (دستويفسكى) الرهيبة التى تغوص حتى العنق فى مستنقع النفس البشرية .. يوجد موقف خالد متكرر فيها هو أن يلقى البطل نفسه ! يجلس معها ويتحاور معها .. ويكون هذا هو بداية الجنون أو نهايته ..

إذن الاحتمال الأول هو أننى مجنون ...

كان هذا سيحلّ المشكلة بأسرها ، لكن عيب هذه الفرضية هو أن (شريف) ـ وكل من سمع حلقة البرنامج إيّاها ـ استمع معى إلى هذا الـ (رفعت) وهو يحاورنى ويتحدانى ويستعرض ذكرياتى ..

ربما تصورت أنا ذلك ؟ يسهل سؤال (شريف) وسماع تسجيل الحلقة على كل حال .. هذه الفرضية قابلة للتمحيص إذن ...

٢ ـ الفرضية الثانية هى فرضية النسخة الجينيَة : أى أن هناك نسخةً جينيَةً لى أنا بالذات .. تمشى على الأرض وتتكلم وتمزح ..

كان هذا حلمًا دائمًا لدى كتاب الخيال العلمى .. لكنه لم يتحقق ـ أو يوشك على ذلك ـ إلا فى

التسعينات .. لهذا بدا لى هذا الفرض مستبعدًا تمامًا وقتها ..

برغم أننى قرأت كتابًا كاملاً عن (الإيوجينيا) وعرفت أن هذا ممكن فى المستقبل ..

٣ ـ فرضية التوءم : فرضية سخيفة .. فأنا لا أعرف لى توءمًا .. وأمى ـ طيّب الله ثراها ـ لم تقل لى إن هناك واحدًا ..

وحتى لو فرضنا تجاوزًا أن لى توءمًا ؛ فما كان ليعرف كل شىء عن حياتى ما دام قد ظلَّ بعيدًا عنى كل هذه السنين ..

٤ ـ فرضية التوءم السيامى ، توءم كان ملتصقًا بجسدى .. ونموت أنا بينما تضاءل هو .. وانفصل عنى .. لكنه مصمم على الانتقام ...

إنها فكرة مرعبة قابلت مثلها بعد ذلك بأعوام .. فذكرونى كى أحكيها لكم(*) كما إن هناك فيلمًا يحمل اسم (قضية السلة) له ذات الحبكة ..

(*) أعتقد أن اسمها سيكون (أسطورة الآخر) ما لم أشعر وقتها بأن الاسم سخيف ومتحذلق !

لكنى أعتقد أننى كنت سأعرف لو انفصل جزء من لحمى فى أية فترة من حياتى .. ألا ترون هذا معى ؟

٥ ـ فرضية المزحة : وهى مزحة عسيرة حقًا تمّ ترتيبها بين معارفى جميعًا .. حيث جلسوا .. وكتبوا تاريخ حياتى كما رآه كل منهم .. ثم انتخبوا خبيرًا فى تقليد الأصوات ليتصل بى مداعبًا .. ويسبب حيرتى ..

هذا عسير حقًا .. فالناس لا يمزحون بهذا الجهد المعقد ..

٦ ـ فرضية (شىء ما) : وهى أكثر الفرضيات قبولاً لدىَّ .. بهذا يمكن تفسير أى لغز من ألغاز الكون ..

شىء ما تسبب فى إرباكى .. شىء ما يحمل كل صفاتى ويعرف كل أسرارى ويؤكد أنه أنا .. شىء ما سيزورنى فى شقتى بعد قليل ...

ما هو هذا الـ (شىء ما) ؟

لو عرفت لأعطيته اسمًا ذا دلالة ...

سأحاول هنا أن أتجنب نظرية (القرين) لما فيها من أشواك .. وأتجنب نظرية أن قارئ أفكار ـ مثل د. (لوسيفر) يتسلى بإغاظتى .. لأن هذا يمكن نفيه بسهولة بمجرد لقائى به ..



هرعت لأرفع السماعة متوقعًا كدأبى مصيبة ما .. هنا سمعت صوتى الوقور المميز يتكلم ..

وهكذا ـ وأنا أزيح الورقة جانبًا ـ رأيت أن الحل الأمثل هو سياسة : انتظر لترى .. ورحت أتأمل عقارب الساعة فى توتر ..

★ ★ ★

إنها العاشرة مساءً ..

للأسف .. ليس سهلاً أن يلقى المرء نفسه .. سأحاول ألا أموت حسرة على قطعتى (الجاتوه) اللتين اشتريتهما اليوم ، وسأضطر إلى العشاء بهما ..

هنا دق جرس الهاتف ..

هرعت لأرفع السماعة متوقعًا كدأبى مصيبة ما ..

هنا سمعت صوتى الوقور المميز يتكلم :

ـ « آلو .. د. (رفعت) ؟ »

قلت فى غضب :

ـ هأنتذا أيها النصاب ! »

طقطق بلسانه محذرًا .. وقال بذات الوقار :

ـ « أنت تخرج عن اتزانك ! »

ـ « بعد كل هذا الانتظار تتهمنى بأننى خرجت عن اتزانى ؟ إننى غاضب .. »

ـ « لكل منا ظروفه .. »

وأردف فى تؤدة :

- « إن هناك مشاكل معينة لدىَّ ها هنا فى العمل .. لا أدرى متى تنتهى .. اقترح أن نجعل الميعاد مفتوحًا .. »

- « آها ! إذن هو التراجع ! »

- يمكنك أن تقنع نفسك بذلك إلى أن نلتقى .. »

وقبل أن أجد ردًا لاذعًا كان قد وضع السماعة ..

إنه نفس أسلوبى فى المشادّات : لتكن لك الكلمة الأخيرة دائمًا قبل أن يجد خصمك الردّ المناسب .. إن هذا سيقتله غيظًا ..

وقد قتلنى غيظًا بالفعل ..

★ ★ ★

٢ - أشياء مريبة ها هنا ..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم .. لهذا لم أستطع أن أمنع نفسى من الشعور بخيبة أمل ساحقة ..

★ ★ ★

ومرّت الليلة فى سلام ..

لم تكن هناك أحداث سوى ذلك الكابوس المقيت الذى ألقى فيه مئات النسخ منى ، وكلهم غاضبون لسبب لا أدريه ، لحظتها خطر لى أن اختفائى لن يشكل كارثة ما دام هناك المئات منى ، ومرارًا صرخت : أنا الوحيد ! أنا الأصل ! لكن ما معنى هذا ما دام الجميع يقولون نفس الشىء عن أنفسهم ؟

فى الصباح استعددت للذهاب إلى المستشفى ، وقد بدت لى ليلة أمس شيئًا باهتًا سحيقًا كنقش رسمه الأشوريون على جدار ..

حييت البواب ، وأدرت محرك السيارة الواقفة أمام البناية .. كروو كروو !

ثمة مشكلة ما .. إن السيارة من طراز عتيق حقًا لكنها لم تنته بعد ..

نظرة إلى مؤشر الوقود جعلتنى أدرك أن الخزان خاو أو يكاد ..

كيف ؟ لقد كان به ما يكفى أمس .. أنا متأكد من ذلك .. هناك من يسرق البنزين من سيارتى أو يسرق السيارة ذاتها ليتنزه بها ..

ناديت البواب .. وهو بالمناسبة شديد الكبرياء حادّ جدًا يعاملنا ـ نحن سكان العمارة ـ باحتقار لا مبرر له ، ولسان حاله يقول : لست خادمًا لأبيكم إن الزمن الأغبر هو ما جعلكم تصدرون الأوامر لى ..

جاءنى متململاً مشمئزًا ، ويداه فى جيبى جلبابه ..

فسألته فى أدب معلنًا عن خجلى من وقاحتى :

ـ « أ .. (عبد اللَّه) .. هل رأيت أحدًا يتحرك بهذه السيارة ؟ »

أطلق زفرة ضيق .. وقال :

ـ « سبحان اللَّه ! لا أحد سواك .. »

ـ « ولم تر أحدًا يدنو منها ؟ »

ـ « سبحان اللَّه ! لا أحد .. منذ ركنتها ها هنا مساء أمس .. »

ـ « لحظة .. تعنى ظهر أمس .. »

ـ « بل مساء أمس .. التاسعة مساء .. سبحان اللَّه يا بك ! لقد صار النسيان دأبك هذه الأيام .. وبعد هذا غادرت العمارة راجلاً .. ويبدو أنك قضيت ليلتك فى الخارج .. »

ـ « أنا بتّ فى الخارج ؟ »

عاد ينفخ فى ازدراء .. وقال وهو يدير جسده فى اتجاه الباب :

ـ « سبحان اللَّه ! أنت قلت هذا .. »

ـ وأين بتّ إذن ؟ »

ـ « هذا ليس عملى .. اللَّه أعلم بما يفعله كل من هؤلاء السكان ليلاً ! »

وجدت أننى لن أظفر منه سوى بمزيد من التذمر ونفخ الهواء ، فصرفته .. وأنا أمرر كلماته مرارًا على جهاز التحليل الموضوع فى مخى ..

وقدت السيارة إلى أقرب محطة بنزين ، وأنا أتساءل عن كنه هذا الذى قال ... إنه ذكى ـ برغم ضيق صدره ـ ويمكن الثقة بأن الأمر لم يختلط عليه أو يتشابه .. أمثاله يدسّون أنوفهم فى كل شىء ..

وفضوليون جدًا .. ولو سطا لصٌ على العمارة فسيكون هذا البواب شاهدًا دقيقًا جدًا لدى الشرطة وسيحدد ملامح اللصّ بدقة فوتوغرافية مذهلة ..

لكنى بدأت أنسى الأمر مع الساعات الأولى من اليوم ..

★ ★ ★

وفى المستشفى بدأت جولة المرور مع ذلك الطبيب المقيم الذى نسيت اسمه ، ولكنّ له أذنين حمراوين كالدم ، وهو عصبى كقاتل جالس على الكرسى الكهربائى فى (متشيجان) ..

سألته عن الأحوال فقال ، وهو ينظر لممرضة تمزح مع صديقتها :

- « كل شىء على ما يُرام .. إن حالة هبوط القلب قد تحسنت كثيرًا .. لقد فعلت كما طلبتَ بالضبط .. »

- « عظيم ! »

لا ليس عظيمًا على الإطلاق .. لأننى لم أطلب منه أى شىء بخصوص أية حالة أساسًا .. دعك من كونها حالة هبوط قلب .. لهذا سألته والفأر (يلعب فى عبىّ) كما يقولون :

- « ماذا أعطيتها ؟ »

- « كما طلبت تمامًا ! »

قالها فى فخر وهو يتقدمنى إلى العنبر ..

لم يفسر الأحمق شيئًا .. ولم أجرؤ على سؤاله ..

ودخلنا لنرى أمامنا ألعن حالة فقر دم رأيتها فى حياتى .. امرأة فى الثلاثين من عمرها ، صفراء كالموز ، تجاهد كى تلتقط أنفاسها .. والتشخيص واضح دون جهد كبير .. هبوط فى القلب ناتج عن فقر دمٍ رهيب ..

دنوت من المرأة وسألتها فى شك :

- « هل أنت متأكدة من أنك تحسنت ؟! »

لو كانت أسوأ من هذا أمس ، فمن المؤكد أنها كانت ميتة .. فلا يوجد أسوأ مما أراه أمامى .. لكنها قالت وهى تلهث :

- « حمدًا لله ! أشكرك على رعايتك .. لـ .. لى ... »

قال الفتى فى حماس وهو يربت على ذراعها :

- « لو لم يمرّ د. (رفعت) ها هنا مصادفة فى العاشرة مساءً ؛ لكان من العسير أن ننقذك .. »

حقًا .. يا لى من عبقرى شهم ! المشكلة الوحيدة هى أننى لم أغادر دارى طيلة أمس .. أتراني جننت ؟

أنا واثق من أننى كنت جالسًا فى شقتى انتظر ذلك الـ (رفعت إسماعيل) الذى لم يأتِ ..

فهل أكون فعلتها دون علمى ؟

قالت المرأة كأنما تزيد حيرتى :

- « حفظه الله .. لقد ظلّ جوارى ساعتين كاملتين .. »

قال الفتى بدوره :

- « كان لديه موعد فى التاسعة لكنه - مشكورًا - قرر إلغاء الموعد هاتفيًا ليظل بجوارك ! »

وانهمرت عبارات المديح لى .. وأنا أشعر بأن رأسى يتحول إلى مستشفى مجانين كلهم يصرخون ويصخبون فى آن واحد ..

هاتفيًا ؟ (هو) اتصل بى أمس وقال إنه لن يستطيع الحضور بسبب ظروف العمل .. أى عمل ؟ كان ها هنا ينقذ حياة هذه المريضة .. وهو جهد استحق عليه الثناء .. واستحق غيظى ..

من هو هذا المدعَى ؟ ماذا يريد بالضبط ؟ وما الذى يحاول قوله ؟ وهل من الممكن الخلط بينى وبينه إلى هذا الحدّ ؟

مستحيل ..

يوجد احتمال واحد هو أننى جننت .. وأننى أفعل أشياء لا أدرى ما هى .. هذا يحدث كثيرًا جدًا ولن يكون غريبًا أن يحدث لى .. لست ممن لا يتصورون أن يجنَوا .. كل إنسان قابل للجنون .. ولا أحد معصوم ..

وكذا يمكن - دون جهد كبير - أن أتصور نفسى ها هنا فى المستشفى ، أنقذ هذه المرأة البائسة من توقف قلبها ، بينما عقلى الباطن هناك فى دارى يتخيل أنه ينتظر شبيهًا له ..

تبًا .. إن حالتى سيئة حقًا !

★ ★ ★

وقد ازداد الأمر سوءًا حين دخلت قاعة الدرس ..

كان هناك عدد محدود - حوالى ثلاثين - من الطلبة ، يجلسون فى تعاسة بانتظار تعذيبى لهم بساعتين من الملل .. وفى مؤخرة القاعة كان هناك طالبان يثرثران وقد غطى كل منهما فاه بكفه حتى لا ألاحظه .. وهو مشهد وجدت ألا داعى لأن أعلق عليه .. كما كانت هناك طالبتان تتبادلان كتابة أشياء فى دفتر المحاضرات ، ثم تناولها كل منهما لصاحبتها .. إنها نوع من المحادثة المكتوبة لا يمكن ألاّ ألاحظها ..

كلها أساليب عتيقة جدًا طالما لجأنا إليها فى صبانا .. وأكره أن أعلن احتجاجى عليها لمجرد أننى من يقف وراء المدفع هذه المرة ..

وعلى لوح الكتابة العتيق الذى تشقق خشبه ، كتبت بقطعة الطبشور وبخط عريض (الأورام اللمفاوية) .. وهنا سمعت همهمة ....

نظرت لهم فى تساؤل .. فبادلونى النظر فى حيرة ..

- « هل ثمة مشكلة ما ؟ »

لم يقل أحدهم شيئًا .. فبدأت أتكلم بعدما سكنت الهمهمة :

- « اليوم نتحدث عن نوع من الأورام التى تصيب الخلايا اللمفاوية .. ونحن مدينون بأكثر ما نعرفه عن هذا الموضوع للعالم (هودجكين) الذى ..... »

هنا تعالت الهمهمة من جديد .. لا أفهم .. هل فيما أقول شىء بذىء لاسمح الله ؟! أم أن ...... ؟

هنا نهض أحد الطلاب مستجمعًا شجاعته الأدبية ليقول ..

- « سيدى .. لقد شرحت لنا الموضوع ذاته أمس ! »

- « أنا ؟ أمس ؟ »

- « نعم .. حتى موضوع أننا مدينون لـ(هودجكين) و .... كل شىء »

ورأيتهم يتبادلون النظرات الباسمة ..

فيما بعد قال (علاء) - أحدهم - إن الأمر بدا لهم كأنه شريط سينمائى يُعاد تشغيله من جديد .. ذات الوقفات والسكنات .. والخط ذاته .. وكان رأيهم هو أننى أحفظ الموضوع كما يحفظه طالب فى حصة المحفوظات .. وبالطبع لم يتخيلوا أن الموضوع لم يكن حاضرًا فى ذهنى .. وأننى كنت أرتبه وأنا أتكلم .. أى أننى لم أكن استقررت بعد على ما سأقول ..

لم آت بردّ فعل معين ، بل مسحت لوح الكتابة بقطعة من القطن .. وكتبت عنوانًا آخر بخط عريض .. وبدأت أتكلم ...

هذه المرة لم يصدر أحدهم همهمة ..

★ ★ ★

فى دارى - بعد كل هذه الأحداث - قررت أن أغفو قليلاً .. فلربما إذا صحوت من النوم وجدت أن كل هذه هلاوس من عقل مرهق .

وتهيأت للنوم حين دق جرس الهاتف ...

هرعت حافى القدمين لأردَ .. يجب منع المصيبة القادمة التى يدق الهاتف منذرًا بها .. فلا بد من واحدة كما تعلمون ..

سمعت صوتًا أنثويًا ذكريًا يقول :

ـ « هاللوا ! د. (رفعت) ؟ »

ـ « أعتقد أنه أنا وإلا فبيتى مسكون .. »

ـ « أنا (كاميليا) ! »

وهنا استعدت الاسم الذى نسيته لفترة طويلة .. ربما منذ الكتيب الحادى والعشرين ..

إن القارئ يذكر ـ دون شك ـ د. (كاميليا) أستاذ الفلسفة ، التى حاول د.(محمد شاهين) أن يجعلنى أتزوجها ، ونمت بيننا صداقة لا بأس بها .. إلى أن اتضح لى أنها ليست (كاميليا) لكنه مخلوق طيفى يلعب دورها ببراعة ..

لقد سادت المودة بينى وبين (كاميليا) بعد هذا اللقاء .. وانتهى سوء التفاهم بيننا .. وكانت بيننا مكالمات هاتفية طويلة تحدثنا فيها عن كل شىء يمكن أن يتحدث فيه رجلان ...

لماذا تبتسم بخبث ؟ بالطبع لم نتحدث فيما تفكر فيه .. فهى أنضج وأنا أحكم ـ أو أغبى ـ من أن أقع فى الحبَ .. ولو فعلنا لبدا الأمر سخيفًا ....

إن (كاميليا) هى صديق راجح العقل .. وتملك كل مزايا الرجولة النفسية ولن أقول الشكلية حتى لا يتهمونى بالوقاحة ...

قلت لها وأنا اتثاءب :

ـ « يسرنى أن أسمع صوتك يا كاآآآآآآه .. ميليا .. »

ثم أضفت فى حذر :

ـ « منذ متى كففت عن النوم عصرًا ؟ »

قالت فى رزانة جعلتنى أوقن أن شيئًا ما فى الطريق :

ـ « لم أستطع النوم .. إن الأفكار تصطرع فى ذهنى .. والسبب أنت ! »

ـ « أنا ؟ »

لو كانت تتصل بى عصرًا فتحرمنى من نوم القيلولة ، لتصارحنى بأنها تميل لى ، فمن المؤكد أنها فقدت قطاعًا لا بأس به من عقلها .. ولكن دعنا نر ....

قالت بنفس الصوت الرزين :

ـ « طبعًا .. لقد بلبل عرضك أفكارى ! »

ـ « أى عرض ؟ »

ـ « لا تتغاب يا (رفعت) .. طبعًا عرضك الخاص بالزواج منى ! »

★ ★ ★

٣ ـ وأشياء مريبة هناك ..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم .. ولهذا تجدنى ميالاً إلى نظرية الجنون لأسباب يطول شرحها ...

★ ★ ★

هرب الدم من يافوخى .. ويمكن القول ـ عمليًّا ـ إننى بدأت أمرّ بأعراض الصدمة كما تصفها الكتب الطبية : الدوار .. ضربات القلب السريعة .. العرق البارد .. ثم ذلك الشعور المقيت بأن الحياة تنسحب منى ..

لكنى وجدت صوتًا واهنًا استطعت أن أجبره على سؤالها :

ـ « أنا طلبت ... الزواج ؟ »

تنهدتْ كأنما تجد الأمر سيئًا .. وقالت :

ـ « أمس .. فى الواحدة صباحًا .. هل نسيت ؟ »

هنا وجدت من الحكمة ألا أشعرها بشىء غير عادى .. فسألتها بعسر :

ـ « و .. وما رأيك ؟ »

ـ « ما زلت حائرة .. »

وأردفت بعد برهة :

ـ « كنت بالنسبة لى دومًا مجرد صديق ذكى .. ومن العسير أن أفكر فيك من وجهة نظر أخرى .. أنت تفهم قصدى .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى .. بلى ! »

ـ « لكنى أحاول ! »

هنا ارتجف قلبى هلعًا ..

أتراها ترفض وتحاول ألا تجرح ـ كما تتوهم ـ مشاعرى ؟ أم هى فعلاً تحاول ؟ أم هى قبلت وتنتظر منى مزيدًا من التوسل ؟

قلت لها وأنا أرى بقعة سوداء تتضخم أمام عينى :

ـ « حاولى يا (كاميليا) .. حاولى ! »

ـ « هذا عسير كما تعلم ! »

ـ « أعلم .. ولكن حاولى .. »

فكَرتْ قليلاً .. ثم قالت كأنما تكلم نفسها :

ـ « لم أكن قط كالفتيات الأخريات .. كنت دومًا جادَة صارمة .. ولم أتزوج لأنى لا أريد أن أفقد عقلى وسط أوانى المطبخ ورائحة السمن ..

لكنى ـ لو قررت أن أتخذ فارس أحلام لى ـ لكان بالتأكيد يختلف عنك .. »

هذا هو ما خطر لى كثيرًا ..

إن فارس الأحلام الأصلع النحيل الذى يسعل طيلة الوقت ، ليبدو غريبًا حقًا حتى بالنسبة لسكان (المشترى) إن كان له سكان ..

أنا كذلك تختلف فتاة أحلامى كثيرًا عن (كاميليا) .. لكنى لن أصارحها بذلك .. سأحاول تفادى هذا الموقف المحرج بكياسة وحكمة ..

قلت لها بصوت العاشق الجريح :

ـ « أرجوك أن تحاولى يا (كاميليا) .. سأعطيك فرصة .. »

وتثاءبت واعدًا نفسى بنومة مريحة تزيل إرهاقى الذهنى .. فقط فلتنته هذه المكالمة بأسرع ما يمكن .. وأردفت وبرودة البلاط تقتل قدمىَ العاريتين :

ـ « لا تقولى ردك الآن .. وداعًا .. »

ـ « وداعًا .. »

قالتها فى عدم رضا .. كانت تريد توسلاً حارًا ورجاء .. وربما تهديدًا لها بأن أقتلها وانتحر إذا رفضتْ ..

هذا هو ما يرضى كبرياء أنوثتها .. أما أن أتكلم بهذا الأسلوب العقلانى البارد فأمر أقرب للإهانة ....

وضعت السماعة .. وهرعت لأندسَ تحت أغطية فراشى ...

ألن أحاول فهم ما سمعت ؟ فيما بعد .. فيما بعد .. حينما أصحو من النوم مرتب الذهن ، سأفكر مليًا - وأنا أرشف قدحًا من القهوة - فى كل هذا ..

★ ★ ★

فى المساء دق جرس الباب حاملاً لى مصيبة جديدة ..

فتحته لأجد (عزت) - بوجهه الكئيب المكفهرَ الترابى - يقف على الباب ، وقد رسم على سحنته ابتسامة رقيقة (أعوذ بالله) ..

كان يحمل فى يده شيئًا ما ملفوفًا فى قطعة من الورق ، وتمَ ربطه بحبل ..

وقال لى فى مودَة وهو يتراجع للوراء خطوة :

- « مرحبًا (رفعت) .. عسى ألا أكون قد أزعجتك .. »

- « أنا لا أجد أى إزعاج فى أن يقرع أحدهم جرس بابى عند منتصف الليل ..

هذا من حقه كما تعرف .. »

- « وعلى العموم لن أطيل عليك .. »

ووجدته يضع لفافته المرعبة فى يدى .. ويقول وهو يبتعد :

- « هذا هو ما طلبته منى .. إنه أقل ما يجب تجاهك .. »

ثم تقلص وجهه في تواضع أبله .. وأردف :

- « الحق أننى لم أتوقع أنك تفهم فى الفنون إلى هذا الحدَ .. »

هنا بدا الأمر واضحًا لى ..

لا داعى لمزيد من الأسئلة (أنا) زرته أمس مساءً وقضيت معه ساعة أو ساعتين .. ولا بد أننى أبديت انبهارًا شديدًا بأحد تماثيله المرعبة ، وطلبت منه أن يهديه لى .. كل هذا واضح ولا داعى للاستفسار عنه ..

عدت لشقتى ووضعت اللفافة على مائدة الطعام ، وقطعت الحبل بسكين الفاكهة .. وكان التمثال ينتظرنى .. تمثال يمثل سحلية فشلت فى التظاهر بأنها بطيخة .. أو جزرة مصابة بسرطان البنكرياس ..

يبدو أن الأخ (عزت) بدأ يتجه إلى النحت الحديث ..



وكان التمثال ينتظرنى .. تمثال يمثل سحلية فشلت فى التظاه
بأنها بطيخة ..

وقد جعلنى هذا أدرك للمرة الأولى مدى جمال وعبقرية تماثيله القديمة ..

إن هناك من يسخر منى .. من المستحيل أن يروق هذا التمثال لإنسان عاقل ..

★ ★ ★

وهكذا ـ لكم أن تراهنوا ـ جلست أتأمل التمثال وأفكر فى معنى كل هذا ..

يمكننى رسم خط سير لا بأس به لهذا الـ (رفعت إسماعيل) الموجود فى كل مكان .. إنه نشيط جدًّا .. نشيط إلى حدَ مرعب ...

لقد قاد سيارتى .. ثم قضى بعض الوقت مع (عزت) ، واختار هذا التمثال .. ثم ذهب إلى المستشفى وأنقذ حياة مريضة ، وحاضر الطلبة عن سرطان اللمف .. وأيًّا ما كانت شخصية هذا النصاب فهو يفهم جيدًا فى أمراض الدم ..

ليس هذا فحسب ..

بل إنه اتصل بالدكتورة (كاميليا) وطلب يدها نيابة عنىَ !

لقد قضى الوغد يومًا حافلاً مليئًا بالإنجازات ، بينما أنا غارق حتى أذنى فى حسابات معقدة ، وحيرة غبية ..

والغريب أنه يمارس كل هذا بعيدًا عن بيتى .. يجرى الاتصالات الهاتفية ، ويحاضر ويعالج ويعجب بالفن الحديث .. كل هذا فى وقت لا أتوقعه فيه ..

أمس كان المفترض أن أحاضر الطلبة .. لكنى اعتذرت .. وهكذا خلا المكان له كى يحاضرهم هو .. ويعتذر عن الاعتذار ..

ولم يكن مفترضًا أن أمرَّ على المستشفى ليلاً .. لكنه فعلها هو .. وقام بما قام به .. وعرف أننى لن أزور (عزت) لأنى سأنتظر فى شقتى .. وهكذا زار هو (عزت) وقضى معه ساعة ممتعة .. ممتعة لـ (عزت) طبعًا ..

من هو ؟ من هو ؟

★ ★ ★

حتى هذه اللحظة كان دور الرجل لا يزيد على أداء بعض المجاملات عنى .. وهو أمر يسرنى أنا الذى لا أطيق المجاملة ..

لكننى بدأت أشعر بخطورة الأمر حين توجهت إلى البنك صباحًا ، لأنهى ورطة مادية مزمنة يعرفها كل من يتقاضى راتبه أول الشهر مثلى ..

هنا بدت الدهشة على وجه الصراف ، وكان هذا كافيًا جدًا لأعرف أننى قد مررت بالبنك أمس وقمت بسحب ألف جنيه .. والتوقيع هو توقيعى ذاته بالطبع ..

كلا .. لا داعى لإثارة جلبة .. أريد مبلغًا آخر من فضلك ..

وغادرت البنك مخدَّر الأعصاب ..

إن الأمر أخطر مما ظننت .. فما دام يتعلق بالنقود - الشىء الوحيد القادر على أن يؤلمنى - فلم يعد تجاهله ممكنًا .. إن ألف جنيه لمبلغ فادح فى عام ١٩٧٠ .

ماذا ينوى هذا النصاب عمله بمالى ؟ وهل يستمر فى خرابى على ذات الوتيرة إلى الأبد ؟ أين هو ؟ ولماذا هو مختف حتى هذه اللحظة ؟

★ ★ ★

فى طريق العودة عرجت على الجزار لأبتاع لحمًا .. لست أكولاً لكن قطعة لحم من حين لآخر قد تنعش روحى .. ألست من رأيى ؟

كان الرجل يقضى ساعات فراغه فى عدّ المال .. وتكديسه فى الدرج ، والتلويح بتلك السكين هائلة

الحجم ، والحديث عن الرضا بالقليل .. فهذا هو المقسوم لنا ..

قال لى حين رآنى أتامل اللحم المعلق فى رهبة :

ـ « حمدًا لله على السلامة يا دكتور ! أرجو أن تكون (قطعية) الأمس قد راقت لك ! »

نظرت له فى غباء ..

ثم فهمت على الفور .. فلم أحتج إلى مزيد من الأسئلة ..

حييته شاكرًا على روعة ذوقه ، وهممت بالانصراف ، لكنه استوقفنى فى أدب وهو يلوح بالسكين :

ـ « لم أتقاض ثمنها بعد .. وعدتنى بالدفع غدًا ! »

ثم فرك يديه فى ترقب متلذذ :

ـ « وها نحن أولاء فى الغد ! »

لا جدوى من محاولة التظاهر بالحيرة أو عدم الفهم ..

نقدته ماله ، وأنا أتمنى لو تحولت نظراتى إلى (مترليوز) يثقب جسده .. وجسد كل من أراه فى هذه اللحظة ..

وانطلقت بالسيارة وقد فقدت شهيتى للطعام نهائيًا .

★ ★ ★

لكن اللحم كان فى ثلاجتى !

قطعة كبيرة حمراء تستقرّ هناك ، وقد اقتطع منها جزء صغير .. وأدركت ـ حين نظرت إلى حوض المطبخ ـ أن هناك من طهى بعض الطعام فى آنيتى ..

لقد تناول أحدهم الطعام فى شقتى ظهر اليوم ، ربما منذ نصف ساعة لا أكثر .. إن الموقد ما زال دافئًا ..

كما أنه ليس من هواة غسل الأطباق كما هو واضح ..

رحت أبحث فى كل أرجاء الشقة عن متسلل لكنى لم أجد ..

لقد فرغ من تناول طعامه وغادر المكان .. قبل وصولى بأقل من ساعة ..

على أن بحثى الدءوب استطاع أن يجد رزمة من الأوراق المالية ـ أقل من ألف جنيه ـ على (الكومود) جوار فراشى ..

هذا هو المبلغ الذى سحبه من البنك .. وذاك هو اللحم الذى اشتراه من الجزار أمس .. إنه ليس لصًّا .. ولا يتلاعب بى ..

كل ما هنالك مشكلة صغيرة جدًّا .. إنه يعتقد أنه أنا !

★ ★ ★

٤ - جنـــون ..

حقًا لا يلقى المرء نفسه كل يـوم .. لكن ليت ذلك ممكن لأخبره برأيى الحقيقى فى هذا السخف ..

★ ★ ★

قـال د. (محمـد إبراهيـم) وهـو يشـعل غليونـه ويسترخى فى مقعده :

- « منذ أن دعوتنى إلى (كفر بدر) لأفحص أخاك (رضـا) - موضـوع النـداهة إياه - لم نلتق ثانية .. ظننتك تعادى الطب النفسى .. »

قلت وأنا أرمق سقف الغرفة :

- « الحق أننى لا أثق بالطب النفسى البتة .. أعتبره نوعًا من الفلسفة الراقية .. إنـه ضرب من الطـب لا يُسمع بالمسماع ، ولا يُرى تحت المجهر ، ولا يُقاس بالترمومتر .. والقياس فيه مستحيل .. »

- « أشكرك لصراحتـك .. لكـن الطـب النفسى له مقاييسه .. »

- « هـل يمكنـك أن تذكر لى عدد الشـرايين التى تغذى (الأنا) ؟ ما هـو الفارق بين أشعة المخ فى حالة الاكتئاب التفاعلى والاكتئاب الداخلى ؟ ما هو تحليل الدم الذى يثبت إصابة المريض بـ (البارانويا) ؟ »

ابتسم .. وراح ينفخ فى غليونه بضع نفخات مـلأت الغرفة بالضباب .. ثم قال :

- « ما دمت تؤمن بتفاهتنا إلى هذا الحدّ .. فلماذا تلجأ إلينا ؟ »

- « لأنكم - على الأقل - تعرفـون الجنـون حين تـرونه .. »

راح يمارس أعمالاً معقدةً فى الغليون .. وهذه هى مشكلةُ تدخين الغليون الدائمة .. إنه يتطلب جهدًا أكثر مما يتطلبه محرك سيارة قديم .. وكل من يمسكون به يقضون الوقت فى أعمال عديدةٍ ليس التدخين من بينها ..

ثم قال بعد ما انتهت معاناته :

- « أنا لا أراك مجنونًا يا د. (رفعت) .. والوساوس لا تعنى الجنون بالضرورة .. وإلا لما عاد فى الكون عاقل .. »

- « أهى وساوس أم ضلالات ؟ »

ـ « إنها الاثنان معًا .. لكنك تعرف أن هذا وهم .. وتجاهد كى تتخلص منه .. هكذا يمكننى أن أساعدك .. »

سألته وأنا انظر إلى السقف من جديد :

ـ « هل يمكن أن تكون لى شخصية أخرى ؟ »

ـ « لا أرى ما يمنع .. »

ـ « دون أن أعلم أنا بذلك ؟ »

ـ « هكذا القصة دائمًا .. »

ثم أخرج أداة لتسليك الغليون ، وعشرة أنواع من الإبر والمطارق والأسلاك وراح يواصل كفاحه مع الغليون .. قبل أن يضيف :

ـ « أنت هادئ متحفظ ميال للوحدة .. وعقلك الباطن لا يحب هذا .. لهذا تحرّر جزء من عقلك اسمه (رفعت إسماعيل) .. هذا الجزء نشط متوثب إيجابى يفعل كل ما لا تجرؤ على عمله .. »

ـ « نعم .. يطلب يد امرأة .. ويشترى عشرة كيلوجرامات من اللحم مرة واحدة ..

ويعجب بتمثال قبيح لدى جارى .. »

ثم عدت أسأله ، وقد بدأ التفسير لا يروق لى :

ـ « لحظة .. وهذا الجزء يتصل بى هاتفيًا ؟ »

ـ « هنا قد تكون واهمًا .. »

ـ لقد سمع كثيرون صوته عبر موجات الأثير .. »

ـ « هنا قد يكون هناك من يداعبك دعابة قاسية .. »

ثم نفخ فى الغليون نفختين .. وسحب سحبتين من الدخان .. ثم عاد يسكب التبغ فى مطفأة أمامه ، ويحاول ملأه من جديد بالطباق .. وقال بلهجة مسرحية :

ـ (رفعت) يا صديقى العجوز .. إن من يوقع توقيعك ويملك مفاتيح دارك ويبدو مثلك ، حتى أمام أدنى معارفك .. لا يمكن أن يكون شخصًا آخر .. إنه أنت يا عزيزى .. أنت ! »

ـ « أنا ؟ »

ـ « أنت ! »

وراح يسلك الغليون بأداة تشبه دودة الأرض .. وقال دون أن ينظر لى :

ـ « هاك ! حاول أن تغيّر المكان قليلاً .. اتبع النصيحة القديمة .. اترك القاهرة العجوز بمشاكلها التى لا تنتهى واذهب إلى .. إلى الإسكندرية مثلاً .. هناك مؤتمر لأمراض الأعصاب بعد أسبوع .. ولسوف يُعقد هناك .. ويمكنك أن تدوّن اسمك فيه .. »

- « لكنى طبيب أمراض دم .. ولا ... »

- « لنقل إنك متحمس للعلم مهما كانت فروعه .. »

نظرت له هنيهة .. وللمرة الأولى لم أجد الفكرة سخيفة ..

عدت أسأله :

- « وأترك شقتى ها هنا لذلك النصاب ؟ »

- « لا يوجد نصابون .. لا يوجد سوى عقلك الباطن .. وأولى خطوات العلاج هى أن تعرف ذلك .. »

شكرته ونهضت لأنصرف .. لكنه كان منهمكًا مع الغليون فلم ير يدى الممدودة كى يصافحها .. قلت له فى أدب :

- « أ .. هل تريد رأيى ؟ »

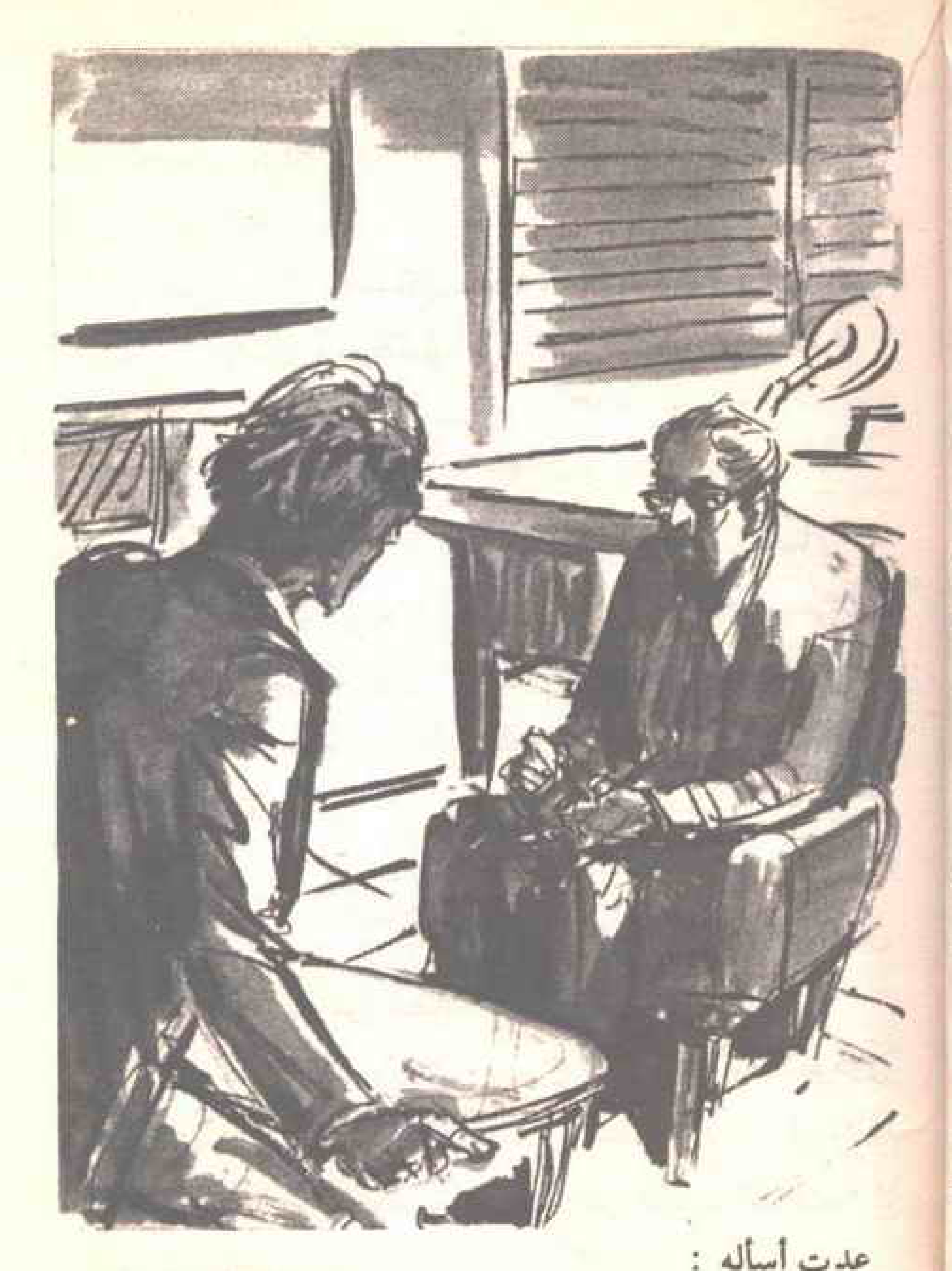
- هه ؟ »

- « اقترح أن تتخلص من هذا الغليون قبل أن تصاب بجنون ذهولى .. أو اكتئاب ضمورى ... أو أى اسم من هذه الأسماء التى لا تنتهى ! »

★ ★ ★

الليلة أسافر إلى الإسكندرية ..

سأقضى أسبوعًا فى (بنسيون) كذلك الذى كنت أمضى فيه ليلتى عندما كانت (هويدا) خطيبتى ..



عدت أسأله :

- « وأترك شقتى ها هنا لذلك النصاب ؟ »

بعد هذا يمكننى أن أقرر حضور المؤتمر من عدمه .. إن المؤتمر ذريعة مناسبة أقنع بها نفسى بأننى لم أهرب من القاهرة ..

لم تكن هناك مشاكل بصدد طلب إجازة ، لأننى وجدت أن هناك من طلبها بالفعل ! بالطبع هو (أنا) .. وهكذا وفَّر علىَّ عناء الإجراءات الإدارية ..

ثم شرعت أحزم حقيبتى ..

لقد ترك الوغد أبوابًا كثيرة مفتوحة فى دنياى .. ومنها باب (كاميليا) وسواه .. ليس بوسعى أن أغلق تلكم الأبواب الآن .. لهذا سأتركها كما هى وافرَّ بضعة أيام .. وعندما أعود قد أكون متّ أو مات هو أو مات الجميع ...

★ ★ ★

ولكنى - حين بدأت فى إعداد حقائبى - وجدت أن عددًا لا بأس به من قطع الثياب ليس موجودًا ..

البذلة كحلية اللون على سبيل المثال - وأنتم تعرفون حبىّ لها - ليست هنا والقميص السماوى .. وربطة العنق الرمادية .. وبعض - إحم - بعض الثياب الخاصة .. كلها لم يعد لها وجود هنا ..

حتى ماكينة حلاقتى ، وفرشاة الشعر الناعمة التى أرتب بها الشعر المبعثر على جانبى جمجمتى .. ومعجون الأسنان ...

ليس الأمر مزاحًا إذن ...

إن هذا (الآخر) يزمع القيام بإجازة طويلة أيضًا .. ولن يدهشنى فى شىء أن تكون الإسكندريةَ هى وجهته .. ربما سبقنى إلى هناك ..

متى يجىء ومتى يرحل ؟ وكيف لا يتصادف أن أضبطه متلبسًا أبدًا ؟ الإجابة واضحة جدًا : لأنك جننت يا عزيزى (رفعت) .. جننت .. وهذا الآخر ليس سوى أنت فى صورة لا تدركها ..

كنت أخاف دومًا رواية د.(جيكل) ومستر (هايد) .. لأن المسخ الذى يثير الذعر فى نفسى حقًا هو أنا .. أنا الذى لا أعرفه .. والذى يفعل أشياء ويقول كلمات لا يمكن أن أفعلها أو أقولها .. ثم لا يصدق أحد أنه ليس أنا .. بل هو ..

آه ه ه ه ! إننى قد جننت .. أو دنوت من ذلك جدًا ..

★ ★ ★

كان رفيقًا بى فترك سيارتى .. لم يأخذها لحسن الحظ ...

أمامى رحلة قيادة مرهقة .. لكنى أحبها .. إنها تذكرنى بأيام خطبة (هويدا) .. أيام البراءة الأولى حين كنت أحسب من حقى أن أحبَ .. وأن أتلهف على أى شىء فى هذا العالم ...

★ ★ ★

وفى الثانية عشرة مساء دخلت إلى المدينة الحسناء .. كانت موشكة على النوم لكنها فتحت عينيها المنهكتين وعرفتنى .. فابتسمتْ وراح عنها النعاس :

- « (رفعت) أيها العجوز ! يا له من دهر ! »

- « أعلم ذلك .. وأعتذر عنه .. لكنك تحملين لى ذكريات سعيدة إلى حدَ أنها شديدة القسوة .. »

- « لا عليك .. حاول أن تنام قليلاً وبعد هذا نتحدث .. »

- « شكرًا .. هل ما زال بنسيون (السعادة) موجودًا ؟ »

- « بالتأكيد .. يمكنك المبيت فيه ما لم تكن الذكريات هناك أكثر من اللازم .. »

وهنا تذكرت شيئًا .. فسألت شوارع المدينة :

- « بالمناسبة .. هل رأيت من يشبهنى اليوم ؟ »

- « يشبهك ؟ من هذا التعس ؟ إن واحدًا فقط يكفى العالم .. »

- « هذا هو رأيى .. »

وكما أخبرتنى (الإسكندرية) ؛ وجدت البنسيون كما هو ، بذلك المصباح الخافت جوار مدخله .. واللافتة التى يمكن قراءتها بكثير من العسر .. ووجدت الخادم ذاته يفتح لى الباب ويتذكرنى على الفور ....

بعد كل هذه الأعوام ؟

قال وهو يضحك .. ويفرك النعاس عن عينيه :

- « أعوام ؟ أنا أتحدث عن مرورك هنا ساعةَ أذان العشاء .. اليوم .. هل نسيت ؟ كنت مترددًا بشأن الإقامة هنا .. يبدو أنك لم تجد فندقًا به غرفة خالية .. إن هذا يحدث .. »

التزمت الصمت .. وقطبت جبينى ..

حتى هنا أجد الشخص ذاته .. وكالعادة سبقنى ببضع ساعات .. إن الأمر لم يعد قابلاً لتفسيره بدعابة أو مؤامرة أو حتى الجنون ... فما تفسيره إذن ؟

أخرجت بطاقتى الشخصية .. ودفعت حساب الليلة .. ثم أخذت مفتاح الغرفة واتجهت إليها بخطوات من يألف الدار ..

وأغلقت باب الحجرة علىَّ .. ثم رحت أجول فى الحجرة أتأمل أثاثها الرخيص النظيف .. إن نظافة هذا البنسيون هى أهم ما جذبنى إليه .. نظافة لها رائحة الغسيل الذى جمعته من على الحبل فى يوم مشمس ..

لكنى لم أكن أنظر إلى شىء بعينه .. كنت أدعو الله فى سرِّى ..

رباه ! لا تدعنى أفقد عقلى ....

إننى لفى مأزق مخيف ..

★ ★ ★

٥ - موقف محرج ..

كنت أقول إذن إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم .. لأن المرة الأولى هى الأخيرة غالبًا .. وبعدها يجد نفسه فى المصحة العقلية ..

★ ★ ★

فى الصباح عرجت على مطعم فتناولت وجبة إفطار لا بأس بها ، وعند الظهيرة اتجهت بسيارتى إلى مديرية الأمن ، لأطلب لقاء (عادل) .. لقد صار عقيدًا منذ فترة ، وهو ما يفسر الشك الذى عوملت به أولاً .. فالاحترام الذى عوملت به بعد ذلك ، حينما طلب أن يوصلونى إليه ..

وصعدت فى الدرج وسط هذا الجو البوليسى الذى تتوتر له أعصابى .. حتى وصلت إلى مكتبه .. طرقت الباب قبل أن يسألنى الجندى الواقف على الباب عن غايتى ، فسمعت صوت (عادل) الجهورى يدعونى للدخول ....

كان وسيمًا كعهدى بـه ، وإن ازدادت الشعيرات البيضاء فى فوديه .. وكان يرتدى ثيابًا مدنية .. القميص وربطة العنق دون وسترة كما يفعلون جميعًا ..

فما إن رآنى حتى نهض واقفًا .. وصرخ وهو يفتح ذراعيه :

- « (رفعت) ! إذن حلّ الخراب بالمدينة ! »

تعانقنا .. وأشار بطرف إلى الجندى الذى كان يحاول اللحاق بى محتجًا .. ثم سألنى عما أشرب .. فطلبت فنجانًا من القهوة .. أشار للجندى كى يجلبه لى ..

لم يكن على علم بقدومى .. لكنه كان ودودًا جدًا .. أنا أعرف أن (عادل) يحبنى حقًا .. حتى برغم ما كان من موضوع (هويدا) شقيقة زوجته .. صداقة الصبا هى أمتن أنواع الصداقة وأخلصها .. ومن العسير أن تتزحزح ، لأنها صداقة روحين لا مجال فيها للماديات ولا النفاق ولا المصالح المشتركة ..

سألنى وهو يجلس جوارى على مقعد أمام المكتب :

- « لماذا عدت ؟ هل تبحث عن شبح جديد ؟ »

- « بل أنا هارب .. هارب من نفسى .. بالمعنى الحرفىّ للكلمة ! »

انفجر يضحك كدأبه فى الضحك من أعمق أعماقه .. وقال :

- « كلنا يهرب من نفسه .. هل نسيت فلسفتك السقيمة ؟ »

- لا مجاز هنا .. الهرب من النفس هو الهرب من النفس .. قلت لك إن هذا هو المعنى الحرفى .. »

عاد يضحك وضربنى على ظهرى ضربة فجّرت شريانى الرئوى .. وقال :

- « إن فهم هذا كله قد يكون مسليًا .. لكن لا وقت لدىّ لذلك .. »

ونظر فى ساعته .. ثم قال بلهجة لا تناقش :

- « لا ارتباطات لديك طبعًا .. ستتناول طعام الغداء فى دارى .. صه ! لا تقل المزيد ! انتهى ! »

ورفع سماعة الهاتف وأدار القرص .. قبل أن أتمكن من الاعتراض ، وسمعته يقول - لـ (سهام) طبعًا - إننى مدعو على الغداء .. وأننا قادمان بعد نصف ساعة .. ثم وضع السماعة واتسعت ابتسامته أكثر ..

صحت فى ذعر :

- « لكنى لن أقابل (سهام) بعد ما ..... »

تقلص وجهه معبرًا عن تفاهة ما أريد قوله :

ـ « كل هذه الأشياء قسمة ونصيب .. لقد مرّ دهر على هذا الموضوع .. و (هويدا) سعيدة الآن مع زوجها .. إن آخر شىء تعتذر عنه يا (رفعت) هو عدم الزواج من فتاة ما .. لأن أحدًا لايعتذر عن خدمة عظيمة كهذه ! »

لم أفهم عبارته الملتفة أولاً .. ثم فهمتها فاحمرّ وجهى .. يريد القول إن أفضل معروف قدمته لـ (هويدا) هو أننى لم أتزوجها .. لهذا أستحق كل ترحاب وتكريم !

ـ « شكرًا .. »

وأحضر لى بعض مجلات الشرطة إياها ، وطلب منى أن أتسلى بها على حين يفرغ مما بين يديه من أوراق .. وأشعل لفافة تبغ وانهمك فى العمل ..

رحت اتصفح المجلات ـ التى هى أقرب للنشرات الدورية ـ فى غير اكتراث .. إلى أن وقعت عيناى على اسمى .. بالتأكيد اسمى .. وكان الموضوع عن التبرع بالدم وكيف أنه عمل جليل .. ويبدو أن كاتب المقال طلب رأيى باعتبارى من المختصين بالموضوع .. غريب !

رحت أقرأ السطور بعين زائغة :

وقال د. (رفعت إسماعيل) ـ ويرى د. (رفعت إسماعيل) ـ ويقترح د.(رفعت إسماعيل) .... إلخ ...

ها هى ذى أشياء قلتها .. وآراء أعلنتها .. لكنى ـ واللهِ يعلم ـ لم أفعل قط .. إن تاريخ المجلة يشير إلى هذا الشهر .. الشهر الذى بدأ فيه الكابوس ...

أحسست بالرجفة تعاودنى .. ورفعت رأسى أتأمل (عادل) ..

هل أصارحه ؟ لن يفهم .. ولو فهم فلن يجد ما يفعله .. إن الوضع كله غريب غريب .. ولكن أية مصادفة هذه ؟

رفع وجهه قوى التقاطيع عن الأوراق ولمح المجلة فى يدى .. فقال باسمًا :

ـ « آه ! وجدت مقالتك ؟ نسيت أن أهنئك عليها .. إن الرائد (عماد) هو أخ صغير لى .. وأنا الذى رشحتك كى يستعين بك فى هذا المقال .. إنه أديب أكثر من كونه رجل شرطة .. »

رفعت إصبعًا مهتزًا .. وأشرت إلى الكلام المكتوب وقلت :

- « أ .. أين أجروا هذا الحديث ؟ »

- « هل نسيت بهذه السرعة ؟ لقد اتصل بك (عماد) هاتفيًا فى دارك وكتب ما تقول .. ألم يرسل لك عددًا من هذه المجلة ؟ »

- « نعم .. إنها مفاجأة سارَة حقًا .. »

وكدت أبكى غيظًا وكمدًا ...

إن هذا (الآخر) يزداد نشاطًا وشهرة يومًا بعد يوم .. إنه يتوسَع فى كل يوم ويلتهم جزءًا جديدًا من عالمى .. حتى أوشك أنا أن أغدو ظلاً له ..

من هو (رفعت) الحقيقى ؟ بالتأكيد هو .. ما دام الأكثر حيوية وسرعة ..

هنا كان (عادل) قد انتهى من أوراقه .. أو قرر إرجاء ما تبقى منها لغد .. ورأيته يتناول سترته ليرتديها .. ويقول متجهًا إلى الباب :

- « هيًا بنا .. »

★ ★ ★

كانت (سهام) فاترة ..

أرضى هذا غرورى إلى حدَ كبير ، فهى - على الأقل - قد خيبت ظنَ (عادل) ولم تلثم يدىَ شاكرة على عدم زواجى من أختها ..

كان الطعام قد أُعدَ على عجل لأنها لم تتوقع قدومى .. بعض (المكرونة) والبطاطس المحمَرة ودجاجة لم تنضج تمامًا ، لأنها أخرجت من الثلاجة منذ ساعة واحدة ..

ولأن (سهام) فاترة ؛ لم تصدَع رأسى - لحسن الحظ - بالطقوس المعهودة لدى البيت المصرى .. على غرار (نحن لا نترك طعامًا فى أطباقنا) أو (لن نلحَ عليك فأنت صاحب الدار) أو (دعنا نر ما إذا كنت بخيلاً) ..

كان الأكل صامتًا .. لهذا أحببته ..

ومن حين لآخر كان (عادل) يحاول تبديد الجو الفاتر بمزحة سخيفة أو مزحتين ، فكنت ابتسم ابتسامة متكلفة ، واختلس نظرة إلى (سهام) لأجدها لا تبدى أى انفعال من أى نوع ..

وجاء (أشرف) ابنهما - هو الآن فى العاشرة من العمر - ليقول شيئًا .. لكن أمه زجرته بعنف .. وأمرته أن يعتكف فى حجرته ...

انصرف الطفل حائرًا .. فأنا بمثابة عمَه .. ولا يوجد ما يبرر أن .....

إنها شرسة إلى حدٍ مبالغ فيه .. ثم لماذا لا يشاركنا الطفل الطعام ؟ ولماذا تدفن وجهها فى طبقها وكأنها أقسمت ألا تلتقى عينانا ؟

الخلاصة أن الغداء كان فشلاً كاملاً ..

وشعرت بجبل من الجليد يعلو شيئًا فشيئًا ، حتى ليوشك على خنقى وراءه ..

ورحت أبتلع المكرونة كأننى ألقى بها فى صفيحة قمامة ، متعجلاً لإنهاء هذه الجلسة المؤلمة ....

(سهام) تبالغ .. تبالغ أكثر من اللازم ..

لو كانت (هويدا) مخطوبة لـ (أغاخان) ثم فسخت خطبتها لبدا الأمر مفهومًا .. لكنى لا أرى فى فقدانى ما يدعو لهذا الغضب المتعصب ..

★ ★ ★

انتهينا من الطعام ..

هنا دقَ جرس الهاتف ، فنهض (عادل) ليرد ، وهو يقول شيئًا عن الأعباء التى توشك على قتله ..

ظللت و(سهام) على مائدة الطعام شبه الخاوية ، والصمت يجلس معنا كصديق حميم ..

أداعب عظمة فخذ الدجاجة بطرف السكين ، باحثًا

عن كلمة يمكن قولها .. ورابع المستحيلات هو أن تجد موضوعًا صالحًا للكلام حين تبحث عن واحد ..

أخيرًا سألتها مبتسمًا :

- « ألا تنويان أن تهديا (أشرف) أخًا أو أختًا ؟ »

ساد الصمت هنيهة وهى تقلِّب المكرونة فى طبقها شاردة .. ثم همستْ :

- « ربنا يسهِّل .. »

قالتها متنهدة ، كأنما تضع مزيدًا من الجليد فوق الجبل بيننا ..

عدت أقول بعد قليل :

- « إن عشرة أعوام لفترة أطول من اللازم بين طفل وآخر .. »

- « هذا ليس من شأنك ! »

كان هذا أقوى مما تصورت ..

صفعة معنوية هوت فوق خدى فاحمرّ .. ورحت أتأمل عظمة الدجاجة فى طبقى باهتمام أشدّ .. حاولت أن .. أعتذر .. فقلت :

- « لم أقل هذا سوى دعابة لكما .. لم أعن ما قلته .. »

- « أما أنا فأعنى ما قلته ! »

هنا فاض بى .. فلو لم أكن فى دارها لهشمت رأسها على الحائط .. ثم تسليت بعدَ الشرايين التى تغذى مخها .. لكنى تماسكت .. وقلت كـ (جنتلمان) يجد كل هذا غريبًا :

- « (سهام) .. أنا لا أفهم ما .. »

- « مدام (سهام) من فضلك ! »

- حسن .. أنا لا أجد سببًا لهذه المعاملة غير المقبولة .. إن أية خطبة هى مجرد اختبار .. قد ننجح فيه وقد نفشل .. وليس من الحكمة أن نكابر فتكون زيجة تعسة .. إن فسخ الخطبة أبسط من الطلاق على ما أظن .. »

- « عم تتحدث بالضبط ؟ »

قالتها واتسعت عيناها فى وحشية .. العينان العسليتان اللتان تتوهجان بالنار عند الغضب .. ومالت على المائدة .. وبصوت كالفحيح قالت :

- « إذا كنت استقبلتك فى دارى ثانية ، فذلك إكرامًا لـ (عادل) .. ولأننى أعرف أنه يمكن أن يجنَ

ويرتكب جريمة .. ولكن لا تتصوَر لحظة أننى أفعل ذلك من أجلك .. ولهذا فقط لن أخبره بما فعلت ! »

- « فعلت ؟ أنا لم أفعل لـ (هويدا) شيئًا ! »

ازدادت عيناها توحشًا .. وصار وجهها أقبح وهى تهمس :

- « أنا لا أتحدث عن (هويدا) .. أتحدث عما قلته لى صباح اليوم ! »

* * *

٦ - أخيــــرًا نلتقـــى !

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم .. لهذا قد تتصرف هذه النفس بكامل حريتهـا ، ودون رقابـة .. وهـذا قد يكون خطرًا .. خطرًا أكثر مما تظن ..

★ ★ ★

- « أنا قلت لك ماذا ؟ »

اندفعت الصرخة من حلقى .. ويبدو أننى وقفت .. أو أننى وضعت ركبتى على المائدة .. لا أعرف حقًا ما فعلته .. لكنه كان مجنونًا ..

قالت همسًا وهى تضع سبابتها أمام شفتيها المضمومتين :

- « صه ! لا فضائح من فضلك .. يكفيك ما كان صباح اليوم ! »

عدت أسألها مستعملاً (أوكتافًا) أقلّ فى صوتى :

- أنا قلت ماذا ؟ »

مطت شفتيها فى اشمئزاز .. وغمغمت :

- « ما كان لك - أيها الحقير - أن تستغل غياب صديقك عن داره .. وتأتى لزوجته كى تصارحها بحبك .. أبعد كل هذه الصداقة ؟ أبعد كل هذه الثقة ؟ »

كانت تكرهنى حقًا .. تحتقرنى حقًا ..

وشعرت أننى أتلاشى تمامًا .. لن تفهم شيئًا ولن تصدق شيئًا .. لقد أحيط بى حقًا ولم تعد الكلمات تجدى ..

هنا - غارقًا فى مجرور أفكارى مقيت الرائحة - سمعت (عادل) عائدًا ..

لقد أنهى مكالمته .. كان يقول أشياء وأشياء ....

- « قلت لك إنها مهنة تقصف العمر » .. عساه لم يسمع .. عساه لن يعرف .. « كلهم لا يجدون سواى كى .. » .. والخطيئة المرتسمة على وجهى تعلن للكون كله أننى حقًا فعلتها .. « .. لقد قتل زوجته لأنها عايرته بفقره .. » .. كيف أفسر شيئًا كهذا لا أصدقه أنا نفسى ؟ » .. ثم سلم نفسه .. ويقول .. » .. الصديق الخائن .. لكنى لم أخن .. فعلها الوغد .. و.. « الساطور .. دماء .. » .. لم يعد البقاء ممكنًا هنا .. « الجيران سمعوا صراخها .. » .. هذا البيت

محرَم علىَ إلى يوم الدين .. لكن هل محرم عليه (هو) ؟

ووثبت على قدمى المتخاذلتين .. وبصوت كالتوسل صحت :

- خذنى معك ! »

- « لا تكن سخيفًا .. نحن لم نجلس معًا بعد .. ثم إنك لم تحتس الشاى .. »

بصوت كالبكاء :

- « خذنى معك يا (عادل) ! »

قال فى لطف :

- « لن أتأخر .. ستنتظرنى هنا .. إن (سهام) بمثابة أختك ولن يضير فى شىء أن .. »

- « خذنى معك ! »

نظر لها فى حيرة .. ثم لى .. ثم لها .. وهزَ كتفيه باستسلام :

- « ليكن .. طالما تصرَ على ذلك .. لكننا سنعود .. »

واتجهنا إلى الباب ، ولم أستطع أن ألتفت إلى الوراء لأشكر (سهام) على حسن ضيافتها .. أعرف أننى لن أضع قدمى فى هذا البيت الحبيب أبدًا ..

وفى السيارة ظللت صامتًا أرمق الشوارع بعينين من زجاج ..

(عادل) يتكلم .. يتكلم .. ثم سمعته يقول بنبرة عالية ليجذب انتباهى :

- « (رفعت) ! ما بالك ؟ تبدو كمن رأى شبحًا .. بل تبدو شبحًا أنت نفسك ! »

ثم أردف وهو يدسَ لفافة تبغ فى فمه :

- « ربما لم تكن (سهام) ودودًا كما يجب .. لكنى أعرف أنك واسع التفكير .. ونحن لن نفهم النساء أبدًا .. هل تعرف السبب ؟ »

فلما لم أردَ .. أجاب على السؤال بنفسه :

- « لأننا لسنا نساء ! نياهاهاهاه ! حلوة ! أليس كذلك ؟ »

كان هذا هو ما أحتاج إليه كى أبكى .. انفجرت ماسورة عواطفى وأحزانى كى تغرق الميادين وتعطل المرور فى مدينة الواقع .. وسمعت (عادل) يتساءل فى لهفة عما حدث .. أتراها (سهام) ؟ اللعينة ! لا بد أن لسانها الشبيه بذيل الأفعى قد .... (رفعت) ! بسم الله الرحمن الرحيم ! هل نتوقف ؟ هل أحضر لك بعض الماء ؟

كنا قد وصلنا إلى (مديرية الأمن) ، حيث تركت سيارتى .. ففتحت باب سيارته وخرجت متثاقلاً .. وبصوت لم آلفه همست وأنا أنحنى على نافذته :

ـ « اسمح لى .. أريد أن أنفرد بنفسى قليلاً .. »

ـ « لكنك لا تبدو فى حالة تسمح بـ ...... »

ـ « أنا بخير .. فقط أنا مُرهق .. مُرهق .. »

وابتعدت دون أن أترك له فرصة الاستزادة ..

★ ★ ★

كان الشاطىء خاليًا تقريبًا من الناس ..

فى ذلك الوقت لم يكن (العجمى) بالازدحام الذى نعرفه ، ولم يكن الوقت وقت اصطياف على كل حال ..

لهذا مشيت .. مشيت ..

يداى فى جيبى بنطالى .. والريح تصفر فى أذنى كأنما قوقعة عملاقة ملتصقة بها .. ورذاذ البحر يبلل زجاج عويناتى .. ويملأ فمى بمذاق مالح ..

رمال .. رمال .. يبعثرها حذائى يمينًا ويسارًا ..

وخواطر لا تنتهى ..

نظرت إلى البحر .. وقلت له : هأنتذا أيها البحر بأسرارك الغريبة ، ترمقنا منذ ملايين السنين .. وتخفى فى أعماقك الكنوز والجثث و .....

ثم وجدت أننى لا أتأمل .. بل أمثل أننى أتأمل .. وأردد ذات ما يقوله كل من يقرّر أن يكتب عن البحر .. الواقع أننى لا أجد فى البحر ما يثير أبدًا ..

مجرَد صفحة غبية مملة من المياه .. مثلها مثل ترعة قريتى .. الفارق الوحيد هو أننى لا أرى الضفة الأخرى ..

ونظرت إلى الأمام لأتجنب سخف الأمواج ..

كان هناك رجل يقف فى الماء الضحل ، وقد ثنى طرفى بنطاله .. وغمر قدميه العاريتين حتى الساقين فى الزبد .. وكان منحنيًا على الماء يتفحص شيئًا ما ، بدا لى شىء مألوفٌ فى مظهره ..

دنوْت منه أكثر ..

كان نحيلاً كعود خلَة .. أصلع ككوكب المشترى .. يرتدى بذلة كحلية اللون وقد تطايرت فى الريح ربطة عنق رمادية .. وعلى أنفه عوينات سميكة ..

وكان يضع تحت إبطه حذاءين مألوفى الشكل لى ..

أنا أعرف هذا الكهل .. ولكن أين ؟

شعر بوجودى ـ وقد صرت على بعد مترين منه ـ فرفع رأسه ، وتلاقت عينانا .. فابتسم .. لقد عرفنى كذلك ..

لقد رأيت وجهه مرارًا .. أين ؟ أين ؟ فى مرآتى ؟!
فى صورى الشخصية ؟ فى عقلى الباطن ..

وهنا بدأت أفهم ..

لقد جاء الفهم بطيئًا .. لكن جاء شاملاً قاسيًا مروعًا ..

إنه هو !

إنه أنا !

* * *

ظللنا لفترة لا بأس بها نتبادل النظرات .. إن كلام (أينشتاين) عن الدقيقة التى تمرّ فوق موقد مشتعل فتبدو كساعة .. والساعة التى تمرّ مع حسناء فتبدو كدقيقة ؛ هذا الكلام لا يعنى شيئًا ها هنا .. فأنا لم أتعذب بلقاء هذا الرجل .. لكن دهرًا كاملاً مرّ علينا ونحن صامتان ..

أخيرًا وجدت الكلمات :

ـ « أنت ؟ »

بنفس صوتى .. قال :

ـ « وأنت ؟ »

ـ « إننى لم أتصورك بهذا القبح ! قرد أصلع يرتدى بذلة كحلية اللون .. بذلتى أيها اللصّ ! »

وقبل أن يجد ردًا .. كنت قد أطلقت العنان لغضبى .. اندفعت قبضتى فى لكمة عنيفة إلى أنفه .. أكاد أقسم إننى سمعت العظام تتهشم .. إنه ضعيف مثلى .. لكنى حانق .. وهذا ما يجعلنى أتفوق عليه ..

واندفعت قدمى فى ركلة شرسة لساقه .. فأطلق صرخة ألم .. وراح يتواثب كاللقلق على ساق واحدة .. سقطت عويناته على الرمال .. فلم أتردد فى سحقها تحت حذائى ..

ثم وثبت لأدفن رأسى الصلبة فى بطنه .. وهنا سقط على الأرض ، وسقطت فوقه .. أعتصر عنقه بين أصابعى وأضغط ..

أنا لا أستطيع إيذاء دجاجة .. ولماذا أؤذيها ؟ لكنى ـ بالتأكيد ـ قادر على سحق أفعى حينما أجنّ .. حينما أنزع عن روحى أصفاد التحضر وقيود الخوف والوقار .. سأقتله الآن .. لن أنتظر حتى أسمع تفسيراته ..

كان يحاول أن يتكلم .. لكن الكلام مستحيل حينما تضغط يد مجنونة على حنجرتك ..

وأخيرًا نجح فى انتزاع عويناتى .. وشعرت به



سقط على الأرض ، وسقطت فوقه .. أعتصر عنقه بين أصابعي وأضغط ..

يحاول غرس إصبعين فى عينىَ .. لهذا أبعدت وجهى إلى آخر مدى ممكن ..

هنا كان (الأدرينالين) قد ملأ دمى .. وشعرت بأن قلبى قد صار أسرع من اللازم .. أسرع مما تحتمل شرايينه المجهدة ..

لحظة وهن مرت بى .. لكنها كانت كافية ..

وعلى طريقة المصارعين نجح فى أن يعتلينى بدوره ..

لكنه لم يحاول خنقى ولم يوجه لكمات لى .. كان يمسك بمعصمى .. ويردِّد مرارًا وهو يلهث :

ـ « صبرًا ! هيه ! قلبك أيها الغبى ! إنه سيتوقف ! »

لكنى لم أكن مستعدًّا للتعقل ..

رفعت ركبتىَ معًا وضربته فى مؤخرة رأسه .. ثم نهضت لأعتليه من جديد .. ورحت أوجه لكمات مجنونة إلى وجهه ..

هذه من أجل البنك .. بوم ! هذه من أجل (كاميليا) .. بوم ! هذه من أجل اللحم .. بوم ! وهذه .. هذه من أجل (سهام) .. بوم بوم ! أقوى بكثير .. أما هذه .. فـ ... بوم ! من أجل بذلتى الكحلية ..

كان صلبًا أو أنا أضعف مما ينبغى .. هذه الكلمات لو كان صاحبها رجلاً عاديًا لأمكنها قتل فيل .. لكنى لست رجلاً عاديًّا .. إن قوتى تعادل قوة دجاجة مصابة بضمور العضلات ..

والوغد ما زال يحاول الكلام ..

كان الغضب أقوى من عضلاتى .. لهذا انحنيت وفعلت الشىء الوحيد الممكن .. عضضته فى ساقه عضة جعلته يصرخ .. يصرخ ليثير ذهولهم فى (إيطاليا) ..

والتحمنا فى صراع فوق الرمال ..

لا بد أن منظرنا بدا غريبًا .. نوعًا من مصارعة الديوك .. لم تطل كثيرًا ..

وفى النهاية جاءت الأمواج لتغمر جسدينا .. جسدينا الراقدين فوق الرمال وقد قتلهما الإنهاك والانفعال ..

وحين انحسر الموج كنت قد هدأت نوعًا ..

ورحت أكافح لأعبَّ الهواء فى صدرى .. وأحاول النهوض جالسًا .. أما هو فظل راقدًا على ظهره يلهث .. وصدره يعلو ويهبط ..

فى النهاية استطاع أن يقول :

- « أنت .. شرس .. حقًا ! »

قلت وأنا أبصق الماء المالح من فمى :

- « وأنت صلب حقًا .. كان المفترض أن تكون فى جهنم الآن .. »

قال وهو ينظر إلى السماء :

- « إننا متعادلان فى القوة .. فلا أمل فى أن يفوز أحدنا .. كما فى الشطرنج حين ينتهى الدور (باطة) .. »

ونهض .. وأردف وهو يحاول الاتزان :

- « ثم إننى أطول منك نفسًا لأننى .. أقلعت عن التدخين منذ خمسة أعوام .. هلم ساعدنى على النهوض .. »

مددت له يدى فالتقطها .. ونهض ..

على حين مشيت إلى الماء لأغسل عويناتى ثم أضعها على أنفى .. ورحت أتأمله عبر قطرات الماء التى تبلل الزجاج ..

إنه أنا .. دون زيادة ولا نقصان ..

حسن .. مرحبًا بك يا (دستويفسكى) يا أستاذ

الجنون .. هو ذا المشهد الذى طالما وصفته فى رواياتك .. لقاء البطل مع نفسه .. الرواية تدنو من نهايتها ..

سألت الرجل وأنا أنفض الرمل المبتل عن ثيابى :

ـ « والآن كفانا مزاحًا .. »

ـ « هذا حق .. إن المزيد من المزاح سيقتلنا .. »

ـ « قل لى من أنت .. »

نظر لى وضيّق عينيه .. ثم قال فى ثبات :

ـ « أنا الدكتور (رفعت إسماعيل) .. »

ـ « يا سلام .. ومن أنا إذن ؟ »

ـ « هذه مشكلتك .. لا بد أنك شخص ما .. »

قلت فى غضب :

ـ « اسمع يا صاح .. أنت تعرف أننى أعرف أنك تعرف أننى (رفعت إسماعيل) فكف عن هذه التمثيلية .. »

قال وهو يمطّ شفتيه فى سخرية :

ـ « تمثيلية ؟ أحقًا تأمل فى هذا ؟ أنت رجل يا .. يا (رفعت) .. لهذا أناشدك بالله أن تقول لى : هل حقًا يمكن لتشابهنا أن يكون مصادفة ؟ »

قلت وأنا أدير الاحتمالات الرياضية فى ذهنى :

ـ « هذا عسير لكنه ليس مستحيلا .. إن الرجال نحيلى القوام ذوى العوينات صلع الرءوس يتشابهون .. ثم إن الشارب يجعل الرجال جميعًا يحملون ذات الطابع .. »

ـ « نعم .. ونفس الندبة فى الكوع الأيسر ! »

قالها وهو ينزع سترة البذلة .. ثم يطوى كم قميصه ليرينى ما يتحدث عنه .. وكان صادقًا ..

قليلون يعرفون بأمر هذه الندبة .. الكسر الذى حدث حين سقطت من فوق الأرجوحة .. كان ذلك فى بيت خالى فى (المنصورة) .. سن العاشرة ؟

الألم .. الجبس .. كسر لم يلتحم جيدًا .. نُدبة ..

فتحت فمى ومددت إصبعى داخله .. هنا صاح قبل أن أسأله :

ـ « تتحدَث عن الحشو الذى سقط فى الضرس الثانى .. هو ذا ! يمكنك أن تراه وتتحسسه إذا لم تخش أن أعض إصبعك ! »

ـ « أنا أشمئزّ من محتويات فمك ! »

ـ « عسير على المرء أن يشمئز من فمه الخاص .. وأنت تدرك جيدًا أننا ذات الشخص .. »

ـ « وتريد منى أن أصدق هذا ؟ »

ـ « تصديقك أو عدم تصديقك لن يضير الحقيقة .. إن الشمس تشرق من الشرق .. وعاصمة (النرويج) هى (هلسنكى) .. أردت أو لم ترد .. »

هذا صحيح .. حتى تعبيراتى الأثيرة يستعملها بذات الأسلوب ..

لكن هناك تفسيرًا لكل هذا ..

وواجبه أن يقدّم لى هذا التفسير ..

وهنا تذكّرت خطأ صغيرًا ارتكبه وهو يتكلم .. فقلت مصححًا :

ـ « آ .. بالمناسبة .. عاصمة (النرويج) ليست (هلسنكى) .. بل هى (أوسلو) ! »

★ ★ ★

٧ ـ المكاشفة ..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم .. لهذا يجب اعتبارها حادثة غير عادية .. حادثة يجب التوقف عندها بعض الوقت ..

★ ★ ★

قال فى إصرار :

ـ « بل (أوسلو) عاصمة (فنلندا) .. ودعك من دقتك الجغرافية هذه .. فالوقت ليس وقتها .. »

قلت وأنا أواصل تنفيض ثيابى :

ـ « كما أرى .. لست وقحًا فحسب .. بل أنت جاهل أيضًا .. »

ثم أردف :

ـ « لم لا نذهب إلى أى مكان لنتكلم كالمتحضرين ؟ »

قال فى سأم :

ـ « لن يكون هذا مناسبًا .. إن تشابهنا لمريب ويلفت الأنظار أكثر من اللازم .. لتكن لقاءاتنا كلها هنا فى هذا الموضع المنعزل .. »

سألته وأنا أثبت عينى فى عينيه محاولاً أن أسبر غوره :

ـ « والآن .. من أنت ؟ »

ـ « لقد صار هذا مملاً .. أنا (رفعت إسماعيل) .. ولكن من بُعدٍ آخر ! »

فتحت فمى غير فاهم .. الكلام له مذاقٍ من قصص الخيال العلمى .. لكنى لا أفهم ما يعنيه حقًا ..

قال فى تؤدة وهو يتأمل البحر :

ـ « هل عندك فكرة عن الموضوع ؟

ـ لا ؟

ـ حسن .. أنت تعرف أن ضخامة حجم الكون غير المتناهية قد جعلت مجرات عديدة تمرّ بذات الظروف التى مرّت بها هذه المجرة .. وفى هذه المجرات شموس .. وحول كل شمس كواكب ربما مرّ أحدها بذات ظروف الأرض .. وهكذا يوجد ألف (رفعت إسماعيل) فى الكونِ فى هذه اللحظة ! »

نظرت إليه مذهولاً :

ـ « أنت تتحدَث عن العوالم الموازية(*) ! »

(*) فيما بعد عرفت قصة (سالم وسلمى) بتفصيل أكثر .. وصار الأمر مألوفًا لى ..

ـ « هو ما تقول .. أنا نسختك القادمة من عالم مواز آخر .. أنا أعرف أنك ستفهم ما أقول لأن ذكاءك هو نفس ذكائى .. وكل ما نحبه واحد .. وكل ما نكرهه واحد .. »

كان الأمر مذهلاً .. لكنى مرغم على تصديقه .. كل الملابسات تحملنى على تصديقه .. إما هذا وإما الاعتراف بأننى مجنون ..

هأنذا واقف على الشاطئ مع نسخة أخرى منى .. أتحدَث معه عن نظريةً من نظريات الخيال العلمى عسيرة التصديق .. إذن هو الجنون ذاته !

عدت أسأله :

ـ « ومن أين جئت ؟ من وعاء الدب الأكبر ؟ »

مطّ شفتيه وقال وهو ينظر للسماء :

ـ « إن شرح هذا عسير .. لكننا ـ فى عالمى ـ نسمى كوكبنا (الأرض) مثلكم .. وتقدمنا العلمى لا بأس به .. لهذا نصدق أشياء كهذه .. »

ـ « وهل جئت هاهنا فى طبق طائر ؟ »

ـ « بل عن طريق مدفع طاقة .. لا يمكن تحقيق هذه الأسفار ما لم تتخلص من جزيئاتك .. وإلا تحولت

إلى رماد كونى .. نحن نحول الجزيئات إلى طاقة تعبر الكون بمربع سرعة الضوء ، ثم يُعاد تجميعها عند الوصول إلى هدفها .. »

ـ « هذه المدافع متوافرة عندكم ؟ إذن لماذا لا أرى مئات النسخ لكل معارفى ؟ إن هذا النوع من السياحة مثير كما تعلم ؟ »

قال وهو ينحنى ليلتقط بقايا عويناته المهشمة :

ـ « من قال إنها متوافرة ؟ يوجد مدفع واحد فى اليابان .. وقد قاموا بانتقاء سبعة أشخاص من جنسيات مختلفة ليقوموا باختبار سبعة كواكب فى أبعاد أخرى .. إن (رفعت) فى كوكبنا وكوكبكم لمن المهتمين بخوارق الطبيعة .. وقد صارت شهرته لا بأس بها فى هذا الصدد .. لهذا وقع الاختيار علىّ كى أكون أحد هؤلاء السبعة المحظوظين .. وهأنذا هنا أقف مع نسختى مبرهنًا على صحة الافتراضات العلمية الخاصة بالعالم الموازى .. »

ـ « وكيف وجدتنى ؟ »

ابتسم فى تؤدة .. وقال :

ـ « يا له من سؤال ! إننى أعيش فى العنوان ذاته ..

وفى جيبى ذات مفتاح الشقة ومفتاح السيارة .. أحيانًا يصعب علىّ أن أصدق أننى فى كوكب آخر .. كل شىء يسير كما تركته فى عالمى .. »

فكّرت هنيهة .. ثم قلت وقد تذكرت :

ـ « وطبعًا (هلسنكى) هى عاصمة (النرويج) عندكم .. »

قال فى دهشة :

ـ « طبعًا .. أليست كذلك عندكم ؟ آه .. فهمت .. لا بد من بعض الاختلافات بين الكوكبين .. فمثلاً أنا أكثر صحة وإيجابية منك .. »

يا للجنون ! كل هذا غريب .. لكنى ميّال إلى تصديقه بالتأكيد .. »

عدت أسأله ورذاذ البحر المالح يداعب وجهى :

ـ « وأين تقيم هاهنا ؟ لم نلتق فى شقتى قط .. »

ـ « اخترت أحد الفنادق .. فلم يكن الصراع بيننا مرغوبًا فيه فى وقت مبكر .. »

ـ « لكنك تدخل وتخرج من شقتى كأنها ملكك .. »

ـ « إنها ملكى ! » ـ قال ضاغطًا على كلماته ـ « حاول أن تفكر جيدًا فى الموضوع من ناحية أخلاقية ..

تجد أننى أمارس حقى الطبيعى فى التعامل مع ممتلكاتى .. كل من هو (رفعت إسماعيل) المولود فى (كفر بدر) فى يوليو ١٩٢٤ له حق التعامل مع هذه الشقة .. »

- « ... واللحم يا وغد ! »

- « إن ثلاجتك خاوية .. ولست راغبًا فى الموت جوعًا .. »

- « ... و(كاميليا) يا لعين ! »

- « إنها زوجة لا بأس بها .. وأرى أنها مناسبة لى .. »

- « ... و(سهام) يا حقير ! »

ابتسم وقال فى بساطة :

- « أما هذه فمجرّد وسيلة لجعل حياتك لا تُطاق ! »

- « لا أفهم .. »

جذب يدى فى رفق كما نجذب يد طفل .. وقال :

- « تعال نتمشى على الشاطئ قليلاً .. لا جدوى من قضاء العمر هاهنا .. »

وتأبط فردتى حذائه ، وإلى جوارى مشى عارى القدمين ، يتسلى بمداعبة الأمواج لقدميه .. فتارة تتسخان بالرمال .. وتارة تتنظفان ..

قال لى :

- « كما قلت لك هناك اختلافات ما بين الكوكبين .. اختلافات صغيرة لكن لها تبعات هائلة .. كلانا كان مخطوبًا لـ (هويدا) أو خاطبًا لها .. لا أدرى بالضبط .. لكنك تشاجرت معها وأنهيت الأمر ..

« أما أنا فكان احتمالى أقوى منك .. وتسامحى أشدَ .. لهذا نجحت فى إصلاح الأمور .. وتزوجتها .. »

فى ذهول نظرت له :

- « أنت تزوجت (هويدا) ؟ »

- « نعم .. ولى منها طفل اسمه (ناجى) ! »

مررت الاسم على لسانى مجربًا مذاقه .. وغمغمت :

- « (ناجى رفعت اسماعيل) .. ليس اسمًا موسيقيًا .. يبدو لى ملفقًا ! »

- « ربما .. فى البدء .. لكن سرعان ما تعتاده حين يتعلق الأمر بكائن حىّ يلعب ويكبر أمامك .. »

نظرت له فى دهشة من جديد ..

إذن فهذا الأخ فأر تجارب يمكن أن أعرف منه بالكامل ما كان سيحدث لو تزوجتُ (هويدا) .. إن لعبة (ماذا إذا ؟) أو (What if) تثير شغفى دومًا ..

ماذا إذا عاش (هتلر) واحتل العالم ؟ ماذا إذا لم يأخذنى خالى للحياة معه فى (المنصورة) ؟ ماذا إذا وصلت إشارة (عجلون) إلى (مصر) ، وخرجت طائراتنا للتصدى للطائرات الإسرائيلية فى ٥ يونيو ١٩٦٧ ؟

قلت له وأنا أشعر بأنه ليس مقيتًا إلى هذا الحدّ :

ـ « وكيف كان الزواج منها ؟ »

ـ « ماذا تتوقع ؟ إن (هويدا) من الفتيات الرقيقات الحالمات ..... حتى تجد زوجًا .. عندها لا يعود لديها وقت لهذه الترهات .. أنت تعود من عناء العمل لتجد امرأة شرسة منكوشة الشعر ، لم تبدّل قميص نومها منذ أسبوع برغم كل بقع الزيت عليه ، ولا يسرّها سوى انخفاض سعر الطماطم .. ولا يضايقها سوى ارتفاعه .. وليس عندها ما يهمك .. وليس عندك ما يهمها لأن كل ما تتحدّث أنت عنه سخف .. مجرّ هلاوس من دماغ فارغ مترف ! »

سرّنى ما قال .. إذن أنا لم أخسر الكثير حقًا ..

عدت أسأله :

ـ « وماذا عن (كاميليا) ؟ »

قال لى وهو يبتسم فى إنهاك :

ـ « إننا أرقى منكم علميًا بعض الشىء .. لهذا قمنا بتطوير حاسب آلى قادر على دراسة احتمالات المستقبل .. أنت تعطيه المعطيات وهو يصل إلى النتائج ، يقدمها لك فى صورة فيلم متكامل على الشاشة .. ويبدو ـ من وجهة نظر الحاسب الآلى ـ أن (كاميليا) ستكون زوجة لا بأس بها .. إنها بحاجة إلى بيت وأطفال .. عندها ستكف عن التحذلق .. لن تكون أستاذًا للفلسفة فى دارها .. بل ستكون أمًّا .. أمًا فاضلة .. »

قلت وأنا أدارى ضحكة خبيثة :

ـ « لهذا أنت هنا .. لقد فررت من كوكب بأكمله كى تتجنب (هويدا) المزعجة وتتزوج (كاميليا) الوفية .. أليس كذلك ؟ »

لم يضحك .. وبجدية كاملة قال :

ـ « ... لقد قلتها .. إن هذا هو أهم سبب يرغّبنى فى الحياة ها هنا .. »

ثم ارتسمت على وجهه مخايل شيطان يحلم .. وقال :

ـ « إن حياتك هنا ملأى بالفرص التى لم تقتنصها ولن تفعل .. لأنك أكثر جبنًا منى .. أما أنا فقد جربت كل شىء فى عالمى وفشلت فيه .. لكننى أعرف الصواب وأستطيع أن أفعله هاهنا .. إنك قادر على إعطائى فرصة نادرة : فرصة البدء من جديد .. أنت لم تبدّد حسابك فى البنك بعد .. لم تبع نصيبك فى الأرض التى ورثتها عن أمك بعد .. لم تتزوج (هويدا) ولم تطرد (كاميليا) من حياتك بعد ..

حتى برنامجك الإذاعى الذى بدأ يعطيك قسطًا من الشهرة ؛ لم تمنعه الرقابة بعد .. إن المكان شاغر لـ (رفعت إسماعيل) آخر يعرف ما يفعله ! »

ثم التقط أنفاسه .. وفى إرهاق قال :

ـ « لهذا جئت لآخذ مكانك هاهنا ! »

* * *



ثم التقط أنفاسه .. وفى إرهاق قال :

ـ « لهذا جئت لأخذ مكانك ها هنا ! »

٨ ـ كوكب لا يسع اثنين ..

كلنا يعرف أن المرء لا يلقى نفسه كل يوم .. لكن صراعات مروعة قد تنجم عن هذا اللقاء إذا حدث ..

★ ★ ★

ـ « يا للسخرية ! وتظن أننى سأتركك تأخذ مكانى ؟ »

قال فى نفاد صبر :

ـ « بالطبع لن تفعلها إلا مجبرًا .. وأنا أعرف كيف أجبرك .. هذا الكوكب لا يسع اثنين يا عزيزى (رفعت) .. وعليك أن تفهم هذا بالحسنى .. وتعود بدلاً منى إلى كوكبى حين يأتى ميعاد العودة .. فالحياة هناك تناسب إنسانًا رخوًا سلبيًّا مثلك .. »

ـ « أنت مجنون ! »

ـ « ربما .. لكنى قادر على جعل الحياة لا تطاق بالنسبة لك هنا .. أنت تعرف أننى قد زرت (سهام) فى شقتها صباح اليوم .. بالطبع رحبت بى وأكرمت وفادتى ..

هنا فتحت الموضوع الشائك الذى جئت من أجله : أنا أحبها .. وأريدها أن تتخلى عن (عادل) من أجلى .. بالطبع فقدت البائسة تعقلها وانهالت علىّ لومًا وتقريعًا ، وطردتنى من المنزل دون رحمة .. بعد هذا جاء (رفعت اسماعيل) البرىء الذى لا يعلم شيئًا عما حدث ؛ ليزور (عادل) ويأتى معه للغداء .. أية وقاحة هذه ! أية سفالة ! تصوّر مئات المواقف المماثلة ! »

صعد الدم إلى رأسى حتى غدا العالم أحمر كعرف ديك .. وصحت :

ـ « أيها اللعين ! لماذا فعلت هذا ؟ »

ـ « الجواب معروف .. لأجعل هذا الكوكب لا يُطاق بالنسبة لك .. سيكون الفرار إلى عالم مواز ـ أو إلى القبر ـ هو الحل الأخير فى جعبتك ! »

ـ « لكنه سيكون عالمًا مستحيلاً بالنسبة لك أيضًا ! »

ـ « هذه مشكلتى .. إننى شخص ناضج يعرف كيف يتولى أموره .. »

كنا قد وصلنا إلى نهاية الشاطئ ، حيث مجموعة من الصخور كساها الطحلب .. وكنت قد وصلت إلى سؤالى الأخير :

ـ « وماذا إذا رفضت ؟ »

التقت عيناه بعيني .. وقال فى هدوء :

ـ « لن يكون لى بديل عن قتلك ! »

★ ★ ★

مبلبل الأفكار عدت إلى البنسيون .. حزمت حقائبى وتهيأت للرحيل ..

يجب أن أعود إلى (القاهرة) اليوم .. الآن .. قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه .. فأنا عليم بما يستطيع هذا الوغد أن يحدثه من ضرر ..

دفعت إيجار اليوم .. وهرعت إلى سيارتى ..

وراحت معالم (الإسكندرية) تهرب منى إلى الوراء ..

من أدرانى أنه لن يبقى فى (الإسكندرية) ، ليواصل إفساد حياتى ؟ لكنى وجدت أنه قادر على إحداث ضرر بالغ فى (القاهرة) .. أما هنا فليس لى سوى (عادل) ، وأم (هويدا) العجوز التى أستبعد أن يخنقها تاركًا بصماتى على أكواب الماء فى شقتها ..

إنه لموقف عصيب !

يوجد شخص آخر يشبهنى ، وله بصماتى ، وهو مصمم على إفساد سمعتى !

ولا يحدث هذا إلا لى .....

(كفر الدوار) .. (إيتاى البارود) ..

ماذا قال ؟ قال إن علىّ لو قبلت عرضه أن أقف فى مكان معين فوق سطح دارى .. المكان الذى يلمسه ظلّ هوائى التلفزيون فى السابعة صباحًا يوم الجمعة القادم ـ أى بعد أسبوع ـ وعندها ستهبط الطلقة التالية من مدفع الطاقة إياه .. عندها تبدأ عملية الاسترداد ..

وماذا لو لم يقف أحدنا فوق السطح ؟

عندها يُرزق العالم باثنين (رفعت اسماعيل) للأبد .. وهو أمر غير مقبول .. لهذا سيكون على أحدنا أن يَقتُل وعلى الآخر أن يُقتَل ..

(كفر الزيات) .. (طنطا) ..

ولماذا أقبل أن أترك عالمى من أجل وغد مدّعٍ ؟ لماذا لا يرحل هو ؟

إن الإيذاء لعبة لاثنين .. لكنه لن يترك هذا العالم قابلاً للحياة فيه بعد رحيله .. هذه هى المشكلة ..

(بركة السبع) .. (بنها) ..

صبرًا أيها القادم من عالم فيه (هلسنكى) عاصمة

(النرويج) ! لسوف أدبرك .. وستعرف أننى لست سهل الهضم ..

(القاهرة) .. العجوز المنهكة ..

عرجت على أول (سنترال) وجدته ، وقد خطر لى خاطر مزعج ..

أدرت قرص الهاتف طالبًا مديرية الأمن فى (الإسكندرية) .. وانتظرت فى توتر حتى سمعت صوت (عادل) يسألنى عما هناك ..

ـ « (رفعت) ؟ أبهذه السرعة ؟ »

ابتلعت ريقى .. وسألته بدورى :

ـ « لم أقل لك إننى مسافر .. كيف عرفت ؟ »

ـ « كنت عندى منذ ساعة .. هل نسيت ؟ أنت تتكلم من (القاهرة) طبعًا .. يبدو هذا مثيرًا .. أرجو أن تتمكن من اللحاق بموعدك .. »

ـ « أى موعد ؟ »

نفد صبره .. فقال فى خشونة :

ـ « موعدك مع ذلك الدائن .. الخمسمائة جنيه التى اقترضتها منى .. أتراك نسيت أم أنك تلعب بى ؟ لا تبدو لى على ما يرام يا (رفعت) ! »

وابتلعت ريقى من جديد .. فعلها اللعين .. ولم تعد جدوى من محاولة الإنكار .. لهذا قلت لـ (عادل) كمن يتذكر :

ـ « آه ! آه ! عفوًا فأنا أنسى سريعًا هذه الأيام .. لا تقلق بصدد مالك يا (عادل) .. سيكون عندك بعد أسبوع .. »

ـ « لا عليك .. وإلا فما نفع الأصدقاء ؟ على كل حال قد سررت حين عرفت أن الديون هى سبب شرودك وغرابة أطوارك .. ولكنى أصارحك يا (رفعت) بدهشتى من أستاذ جامعة فى هذه السن ؛ ولا يملك خمسمائة جنيه فى وقت الطوارئ .. إن التبذير لم يكن ..... »

لا أجد الوقت مناسبًا لهذا الهراء ..

لذا صحت فيه فى غلظة :

ـ « (عادل) .. اسمعنى .. إياك أن تسدى لى أى خدمات مالية ، أو تصدق أى حرف أقوله لك ، أو تسمح لى بزيارة دارك لمدة أسبوعين من الآن .. هل تفهمنى ؟ »

ـ « طلب غريب حقًا .. هل أنت .. ؟ »

- « لا وقت للشرح .. وداعًا ! »

ووضعت السماعة ..

ها هى ذى أولى خسائرى .. كل الناس تشك فى حالتى العصبية حاليًا ..

ولا ألومهم على ذلك أبدًا ..

ثم هرعت إلى سيارتى فاستقللتها إلى دارى ..

★ ★ ★

أحضرت المفك وعالجت قفل الباب ، ثم استبدلت بقلبه ذلك القلب الذى ابتعته من (الإسكندرية) .. وهكذا لن يدخل الشقة سواى ..

لقد تأخرت هذه الخطوة كثيرًا .. ربما لأننى كنت أحسبنى مخبولاً لا أكثر .. أما الآن فأنا أعرف أن العدو هنا .. وقريب جدًا ..

ثم رفعت سماعة الهاتف ، وأدرت بضعة أرقام على القرص ..

صوت أنثوى ذكرى يتساءل عن المتكلم :

- « أنا (رفعت) يا (كاميليا) .. »

- « مرحبًا (رفعت) .. اتصلت بك أمس لأقول إننى - بعد عدة تحفظات وشروط - على استعداد لأن أقب ..... »

سارعت بمقاطعتها قبل أن يخرج حرف (اللام) القاتل من فمها :

- « نعم .. أعرف أنك مترددة يا (كاميليا) .. وأنا لن أثقل عليك .. »

وابتلعت أكبر قدر من الهواء لأتمكن من التلفظ بالتالى :

- « يبدو أننى وضعتك فى مأزق حرج .. صداقتى أم حبى ؟ لن أضايقك أكثر من هذا .. صداقتك تعنى لى كل شىء .. ويمكننى أن أتحمل الحرمان من حبك ما دمت ستكونين صديقتى .. حسن .. اعتبرى أننى لم أقدم عرضًا ! »

كنت أتكلم وأنا أعتصر السماعة كالثعبان فى قبضتى ..

يا له من موقف ! يا له من موقف !

قالت لى فى تردد :

- « لكنى لم أقل ذلك .. ربما كانت هناك فرصـ ..... »

- « لا يا (كاميليا) .. أنا لن أثقل عليك مرة أخرى .. فأنا أعرف حدودى .. وقد حسبت للحظة أن النجوم من حقى .. لكن كنت أحمق كديدنى .. »

لقد لعبت الدور كأعظم ممثل شكسبيرى ..

أعرف أنها لا تفهم .. أعرف أنها تشعر بالإهانة .. أعرف أنها تعتبرنى حمارًا أو مهرجًا سخيفًا .. أعرف أننى بالغت فى تقليل شأنى ..

لكنى مرغم .. يجب أن أقطع هذا الجسر على الوغد الآخر ..

سمعتها تقول فى خيبة أمل تداريها :

- « حسن .. كما تشاء .. والآن وداعًا .. »

- « وداعًا ! »

ووضعت السماعة ..

رجل يعرض الزواج على امرأة ويتوسل لها .. ثم يعتذر عن عرضه حين توشك هى على القبول ! أى نذل هذا .. ومن أية مباءة جاء ؟

المهم أننى - بجراحة دامية - نجحت فى قطع ذيول هذا الموضوع الشائك .. وهأنذا قد فقدت اسمًا جديدًا فى لائحة أصدقائى ..

هل سيتصل بها ؟ هل يكرّر العرض ؟

هذا جائز .. لكن كبرياء الأنوثة عاتية حقًا .. وهناك احتمال ٩٩,٩٩ ٪ أن تغلق السماعة بمجرد سماع صوته ..

ماذا بقى لى من أعمال مهمة ؟

هرعت إلى البنك .. وطلبت تغيير توقيعى .. ها هى ذى مشكلة جديدة تم حلّها ..

ثم اتجهت إلى الجزّار - اللّحام حتى لا أستفز المجمع اللغوى - وأخبرته برسالة غريبة بعض الشىء : لا تبع لى لحمًا لمدة أسبوعين .. حتى لو بدا لك أننى أموت جوعًا !

رجل ثالث يحسبنى جننت .....

لن تكون هناك مشاكل فى الجامعة لأن إجازتى لم تنته بعد ..

هل نسيت شيئًا ؟

طبعًا نسيت !

* * *

٩ - ثغرات .. ثغرات ..

يقولون إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم .. لكن عليك أن تتذكر كل ما كنت تفعله كروتين قبل هذا اللقاء ..

★ ★ ★

أول الغيث قطرة ..

وقطرتى كانت مع رنين الهاتف اللحوح المزعج .. رفعت السماعة وأنا أتمنى أن يكون المتكلم أمامى لأخنقه ..

كان هذا صوت (رضا) أخى يتحدث من (كفر بدر) .. فصحت :

- « مرحبًا (رضا) .. هل ماتت زوجتك ؟ سيؤسفنى هذا كثيرًا .. »

لكنه لم يكن ذا مزاج للمزاح .. وسمعته يقول بصوت متجهم :

- « لماذا لم تقل لى إنك تريد بيع القيراطين ؟ »

قيراطين ؟ هناك خطأ ما ..

- « من قال هذا الكلام الفارغ ؟ »

- « (عبد المنصف) .. ألم تزره منذ يومين وتطلب منه أن يجد مشتريًا على وجه السرعة ؟ هذه أشياء غير مفهومة يا (رفعت) .. من العار أن أعرف هذا من الغرباء .. ثم إننى مستعد للشراء إذا أردت بيعًا .. أنت تعرف هذا جيدًا وبرغم ذلك .. وبرغم ذلك ...... »

آه ! فهمت سرّ اختفاء (رفعت إسماعيل) الآخر عنى منذ عدت إلى (القاهرة) .. كان هناك فى (كفر بدر) يبيع القيراطين اللذين أملكهما .. وطبعًا لن يصدق (رضا) .. حرفًا من تفسيرى للأمر ..

- « حسن يا (رضا) .. اذهب لـ (عبد المنصف) وقل له إننى تراجعت .. لن أبيع .. وأمنحك صلاحية مطلقة لمنع أى محاولة للبيع ! »

- « لكن .. أتراك مريضًا يا أخى ؟ »

- « افعل ما قلت يا (رضا) أرجوك .. »

وأنهيت المكالمة ..

هو ذا شبيهى يتصرف بأسلوبه المعتاد .. الضرب

تحت الحزام .. ولا شك أنه ذهب إلى البنك ليسحب كل مدخراتى ، لكنه اصطدم بتغيير التوقيع .. لا أعرف كيف تخلص من هذا الموقف .. لكنه راح يحاول لعبة جديدة فى (كفر بدر) ..

إن السيطرة على أفعاله شبيهة بالسيطرة على قطيع من الخراف الهائجة .. كلما سيطرت على عشرة منها فرّ اثنان .. طارد الاثنين تجد أن العشرة قد فرّت بدورها ..

دق جرس الباب فذهبت لأفتحه ..

كان هذا هو الحاج (عرفة) صاحب المنزل .. وهو تاجر خردة واسع الثراء .. لكن كبر السن أورثه ضيق خلق وجهامة .. ولم يكن من المعتاد أن يزور شقتى إلا فى المصائب ..

حييته .. لكنه لم يكن ودودًا .. دعوته للدخول فلم يبد على استعداد ..

ـ « خيرًا يا حاج ؟ »

سعل مرارًا .. وبصق .. وراح يهزّ عصاه فى عصبية مرددًا :

ـ « من أين يجىء الخير ؟ من أين يجىء ؟ أبعد

كل هذا العمر والعشرة تحرر ضدّى محضرًا فى المخفر ؟ لم ؟ ولم تراع هذه الشيبة ؟ »

كان التفسير واضحًا .. مأزق جديد من المآزق التى صارت إيقاع حياتى فى الآونة الأخيرة ..

ـ « بعد كل هذا العمر تشكونى لأن مصباح السلم مكسور ؟ »

إذن مصباح السلم مكسور .. هذا جديد علىّ .. وطبعًا قام شبيهى بعمل ما يلزم لتدمير العلاقة بينى وبين صاحب الدار للأبد ..

رحت أعتذر للشيخ عاجزًا عن إيجاد تفسير مقنع .. وفى النهاية وعدته بالتنازل عن المحضر .. لكن هذا لم يكن عذرًا كافيًا .. فالمحضر لا يهم .. المهم هى الروح الخسيسة الشريرة التى أملت علىّ ما فعلت ..

وانصرف غاضبًا .. وأنا أبحث عن شىء أقوله ..

★ ★ ★

ثالث قطرات الغيث ..

★ ★ ★

عند البقال .. وقفت أنتظر دورى .. ثم تقدمت إلى النضد الرخامى الذى تعلوه شظايا الجبن الرومى .. وبقايا الخلّ .. والزيت ..

- « هل يوجد عندكم جبن دمياطى جيد ؟ »

كانت الحسناء الواقفة جوارى تحدجنى بعينين متهمتين ..

ثم ازدادت عيناها اتساعًا ..

نظرت لها فى غباء .. أنا لم أرها من قبل ..

ثم تذكرت أن كل شىء ممكن فى هذه الآونة ..

هذه الفتاة تعرفنى .. وقد آذيتها أذى كبيرًا فى وقت ما .. هذا أكيد ..

رأيتها تجذب وحشًا مفتول العضلات من ذراعه .. وكان يقف جوارها منهمكًا فى تذوق قطعة من الجبن ناوله البقال إياها ليجربها ..

نظر لى بدوره وفى عينيه نظرة تنذر بحش الرقاب .. وسمعتها تقول له :

- « (ميمى) ! هذا هو الوقح الذى عاكسنى أمس ! »

نظرة حش الرقاب صارت نظرة فتح كروش .. وهو يرمقنى مذهولاً ويقول :

- « هذا ؟ (خيال المقاتة) هذا ؟ »

- « أقسم لك .. قال عبارة غزل ثم أرسل قبلة فى الهواء ، وانصرف ! »

هنا ازداد الأخ (ميمى) هياجًا .. وتكورت العضلات فى ذراعيه وصدره .. ورأيته يتقدم منى وهو يزأر كالنمر .. الجبن يتساقط من شفتيه مع اللعاب .. لم أنتظر لأقدم تفسيرات أو أسئلة .. أنا أعرف أن هذا حدث .. أعرف أن هذه هى الحقيقة ..

وقبل أن أفهم أنا نفسى ما يحدث ، أطلقت ساقىَ للريح .. إننى خفيف الوزن على كل حال .. لكن منظرى بدا لى مهينًا .. مهينًا إلى حد لا يوصف ..

بعد كل هذه السنين .. أنا د.(رفعت إسماعيل) يهرب كأرنب .. ومتهم بمعاكسة امرأة !

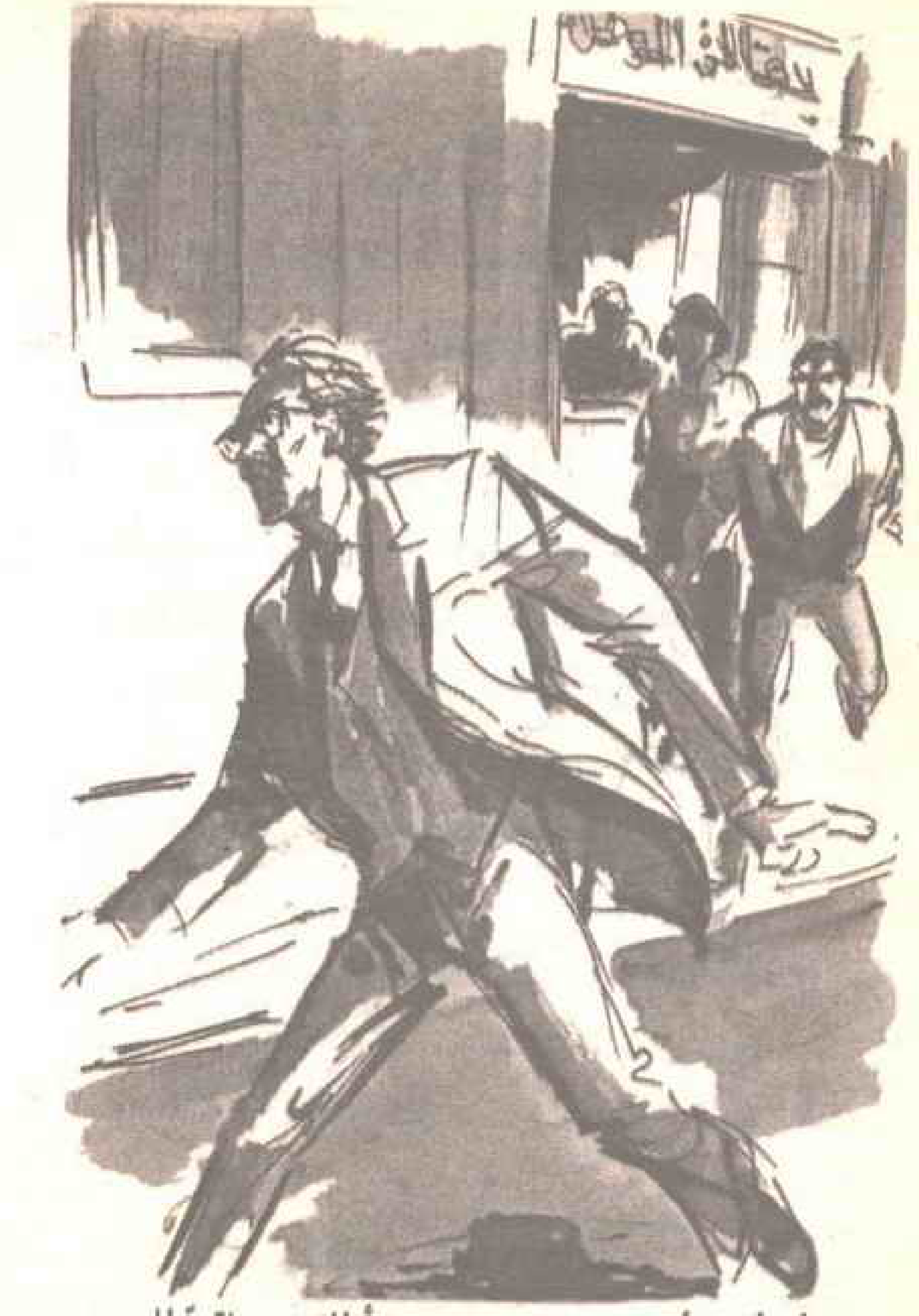
ولو أمسكنى هذا الأخ (ميمى) لتناثرت كرامتى مع دمائى فى كل أرجاء الشارع .. تدوس عليها الكلاب وأحذية العابثين ..

وحين ابتعدت بمسافة كافية ؛ أرحت ظهرى إلى جدار .. ورحت ألهث .. وعيناى تدمعان قهرًا .....

ورحت أردد دون كلل : سوف أقتله ! سوف أقتله !

★ ★ ★

وتحت باب شقتى وجدت ورقة دسها أحدهم لى .. تقول :



وقبل أن أفهم أنا نفسى ما يحدث ، أطلقت ساقىّ للريح ..
إننى خفيف الوزن على كل حال ..

ـ « اهرب بجلدك ! أنا أعرف كيف أتوافق مع هذا الجحيم .. أما أنت فلا .. »

لم يكن ثمة داع للتوقيع .. لأن الخط خطى ذاته ..

★ ★ ★

ثم انهمر الغيث ..

صار مألوفًا أن يتهمنى كل الناس بأشياء لم أعملها ..

جارى ـ المهندس الشاب ـ جاءنى ومعه طفلته الصغيرة .. كانت تنتحب فى حرارة وفى يدها دمية مكسورة ..

تقول الطفلة إننى قابلتها على السلم ، فانتزعت منها الدمية وهشمتها بضربها فى الحائط مرارًا .. ثم صفعت الطفلة وانصرفت .. فما هو دفاعى ؟!

أقسم بالله إننى لم أفعل ..

وبعد جدل حميص وتلويح بالأيدى ، يحاول الرجل إقناع نفسه أن الطفلة تكذب أو تتوهم .. أما أنا فأعرف أن كل حرف قالته صدق ..

ثم يجئ البواب ومعه صديقان له .. ليلومنى على السبّة التى أطلقتها عليه .. لم أفعل .. أقسم بالله لم أفعل ..

وينتهى الموقف على تراض غير ذى أساس ..

★ ★ ★

لم أفعل .. أقسم بالله لم أفعل ..

★ ★ ★

بعد يومين فى هذا الجحيم كنت قد حزمت أمرى .. سأقتل (رفعت إسماعيل) دون شفقة !

★ ★ ★

١٠ - ألعاب القتل ..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم .. لهذا يحتاج إلى ما هو أكثر من الحظ كى يقتل هذه النفس دون أن يموت هو نفسه !

★ ★ ★

أراكم مندهشين !

هو ذا العجوز المسالم (رفعت إسماعيل) الذى اعتاد أن يبيت مظلومًا لا ظالما ؛ يتحدث عن القتل فى تصميم حاقد ..

خذوا الموقف من الناحية الأخلاقية ..

أولاً : أنا لن أقتل سوى نفسى .. لكنه وضع فريد لن يكون من السهل أن تعتبره انتحارًا ، لأننى سأظل حيًا بعد هذا ..

ثانيًا : إن قتل الأفاعى السامة ليس جريمة ، وقد أثبت هذا الـ(رفعت) .. أنه أشد أذى من كل الأفاعى المقرنة وذات الجرس .. ثم إن أحدًا لن يساعدنى سواى .. لا جدوى من أن أشكوه إلى الشرطة ..

ثالثًا : لو أنك صادفت طبقًا طائرًا ونزل منه كائن مغطى بالحراشف ، وله لسان مشقوق وثلاث أعين .. عندها يمكنك أن تقتله .. من الناحية الأخلاقية لن يتهمك أحد بأنك قاتل آثم .. قوانين الأخلاق لا تتضمن تلك الكائنات الشنيعة القادمة من عوالم أخرى .. وهذا الـ (رفعت) كائن قادم من عالم آخر ..

صحيح أنه يبدو بشريًا .. صحيح أنه مثلى ومثلك .. لكن القاعدة لا تتحمل أية استثناءات ..

هذا عن الناحية الأخلاقية ..

من الناحية الأمنية لن تكون هناك مشكلة .. فهذا الـ (رفعت) لا وجود له .. وطالما أنا حىّ أرزق فلا جريمةَ هنالك ..

يبقى الآن التدبير العملي لهذه الجريمة ..

١ ـ يجب أن يكون قتلاً سهلاً لا يحتاج إلى مجهود عضلى ..

٢ ـ يجب أن تختفى جثته تمامًا .. كأنما لم يوجد قط ..

٣ ـ يجب أن أكون حذرًا .. لأنه ـ بالتأكيد ـ يتوقع هذا .. ولأنه يحمل مسدسًا طبعًا ما دام نسخة أخرى منى ..

الآن ـ بوصفى قاتلاً مرتب الذهن ـ غدا من واجبى أن أضع الطرق المختلفة للقتل على الورق ، مع اختيار أفضلها وأنسبها ..

١ ـ القتل بالخنق .. الشنق .. العنف الجسدى : بالتأكيد لا يصلح .. فنحن متعادلان فى القوة .. بل كفته أرجح قليلاً .. وهذا يعنى أنه قادر على سحقى متى شاء ..

٢ ـ القتل رميًا بالرصاص : حلّ لا بأس به ، ولا يحتاج إلى قوة جسدية .. لكن تبقى مشكلة صوت الرصاصة .. لا أملك كاتمًا للصوت ولا أعرف من أين أبتاع واحدًا ..

(ربما لو استطعت تدبير لقاء فى الصحراء لغدا هذا ممكنًا) ..

٣ ـ القتل رميًا من عل : يحتاج إلى صراع عنيف .. ولربما كان هو الطرف الأقوى فيه .. ثم إن هذا القتل تتخلف عنه جثة .. والجثة ستثير أسئلة كثيرة .. خاصة أنها ستكون ملقاة فى عرض الطريق ..

٤ ـ القتل بالسمّ : حل رائع .. وغير خطر .. فقط يحتاج إلى جلسة صافية بيننا فى مكان منعزل ..

وهكذا استقر رأيى على القتل بالسمّ ..

واتجهت إلى صيدلية دارى ، فاخترت بعض عقاقير القلب الفعالة .. إن أقراص (الديجيتالا) مناسبة جدًا .. يكفى أن أطحن منها ثلاثين قرصًا بقاعدة الكوب .. ثم أضعها فى وريقة صغيرة .. وأدسّ المسحوق فى جيبى بانتظار اللحظة المناسبة ..

وهكذا رحت أمضى الساعات استعدادًا لمهمتى الخاصة هذه ..

★ ★ ★

إنه يريد أن يطردنى من وجودى .. يحتلّ عالمى .. لهذا صارت الحرب هى المخرج الوحيد لى .. ولتكونن حربًا ضروسًا لا تذر ..

★ ★ ★

أين هذا الوغد ؟ لماذا لا يتصل بى ؟

★ ★ ★

فى اليوم التالى لم تكن هناك مضايقات كثيرة ..

فقط استدعونى إلى المخفر .. وهناك رأيت د. (رشدى) جالسًا ينتظر ..

كان د.(رشدى) زميلاً لى فى الكلية .. وكان

متوترًا دومًا كذيل حية ذات جرس .. وله شعر أشيب ناعم ينساب على جبينه كلما حاول رفعه لأعلى .. ووراء عويناته تطلّ نظرة اتهام دائمة ..

كانت بيننا منافسة طال أمدها .. فهو من نفس صفّى الدراسى قديمًا .. وكلانا يحاول أن يسبق الآخر بخطوة ليريه كم هو أحمق ..

وفى الآونة الأخيرة نما بيننا عدم استلطاف متبادل ، كان يتحوّل أحيانًا إلى تراشق بالاتهامات .. فأنا أعتقد - وأومن - أنه سرق إحدى أوراقى البحثية ونشرها باسمه .. أما هو فيؤمن أننى المسئول عن اختفاء عيناته المعملية من ثلاجة المستشفى .. وهذا كلام فارغ طبعًا ..

كنا لا نطيق بعضنا .. لكننا حافظنا دومًا على روح التحضر بيننا .. ولولاها لهشم كل منا رأس الآخر على أقرب جدار ..

كان جالسًا مع مأمور القسم يجرع بعض المياه الغازية من زجاجة ، وحين رآنى أشاح بوجهه بعيدًا وازداد توترًا .....

دعانى مأمور القسم للجلوس .. ثم قال فى تحفظ :

- « معذرة يا د. (رفعت) .. إنه سوء تفاهم سيتم حله سريعًا .. »

سوء تفاهم ؟ ماذا حدث فى هذه المرة ؟!

قال المأمور بنفس اللهجة المهذبة :

- « يبدو أن هناك من يستغل اسمك ، ويداعب د. (رشدى) مداعبات قاسية .. لكننا واثقون أن هذا لم ولن يحدث بين أستاذى جامعة راقيين مثلكما ! »

هنا صاح (رشدى) فى هستيريا :

- « إنه هو ! الخطّ خطّه والتوقيع توقيعه ! »

نظر له المأمور كى يصمت .. ثم عاد يسألنى بنفس الابتسامة المهذبة :

- « هل عندك فكرة عن هذا الخطاب ؟ »

مددت يدى لأتناول المظروف من يده .. وفتحته متوجسًا ..

كان يفتقر إلى التهذيب .. هذا هو أقل ما أستطيع وصفه به .. ولما كان نصّه غير قابل للنشر فإننى أرجو إعفائى من تلاوته عليكم .. لكنه - على كل حال - يحوى قدرًا لا بأس به من التهديد .. وعددًا محترمًا من نعوت (الحمار) و (الخنزير) و (اللصّ) و (المعتوه) ..

كان الخطاب يهدد (رشدى) بقطع أذنيه إذا لم يكف عن سرقة بحوثى العلمية .. وطبعًا كان الخط خطى دون حاجة لخبير خطوط ، وكان مذيلاً بتوقيعى وباسمى ..

مفاجأة جديدة يقدمها لى ذلك الـ (رفعت إسماعيل) ..

رفعتُ الخطاب فى يدى .. وقلت بلهجة من يجد كل هذا سخيفًا :

- « طبعًا لا داعى لإضاعة الوقت فى مناقشة هذا الاتهام .. إن من يكتب خطابًا كهذا لا يوقعه باسمه أيضًا .. »

نظر المأمور إلى د. (رشدى) وابتسم .. وهزّ يده .. كأنما يقول له : أرأيت ؟ إن هذا منطقى جدًا ..

لكن د. (رشدى) هتف فى عصبية وتعصب :

- « إن (رفعت) ذكى جدًا .. لقد وقّع الخطاب كى يبعد الشك عن نفسه .. كان يعرف أننا سنقول ذات الشىء ! »

قلت أنا محنقًا (وقد زاد من حنقى أننى أعرف أن كلامى كذب) :

- « ولماذا أرسل خطاب تهديد ؟ يمكننى دومًا أن

أقول لك ما أريد بلسانى .. لستُ مراهقًا يخشى أن يصارح ابنة الجيران بحبه ، فيكتب لها خطابًا .. »

قال المأمور بلهجته المهذبة الميالة إلى تهدئة الأمور :

ـ « أنا كذلك أرى أن هذا غير منطقى .. هناك من يلعب لعبة قاسية كى يوقع البغضاء بينكما .. »

هتف (رشدى) وهو يزيح الخصلات البيضاء عن جبهته :

ـ « خبير خطوط ! أنا أطالب بعرض هذا الخطاب على خبير خطوط .. عندها سيعرف الجميع أن هذا هو خط (رفعت إسماعيل) ! »

آه ه ه ! هذا هو ما أخشاه .. أنا أعرف جيدًا أن الخط خطى ..

لكنى تظاهرت بقوة موقفى .. وباستخفاف قلت ! »

ـ « خبير خطوط ! لِمَ لا ؟ وقارئ كف كذلك .. إن الخط يشبه خطى يا د.(رشدى) .. لكنه ليس خطى .. هل هذا واضح ؟ هناك من تعمّد تقليد خطى ليحكم خداع شخص مثلك .. »

صاح الرجل فى عصبية بالغة وهو يشير إلىّ :

ـ « هل تسمع يا سيدى ما يقول ؟ أنا أطالب بحمايتى من هذا الرجل .. فهو مجنون تمامًا .. مجنون ولا يتحكم لحظة فى نفسه .. »

ظلّ المأمور جالسًا ينقل عينيه بين وجهينا .. نظراته تقول بوضوح : تاللّه ما أغرب هؤلاء الأطباء ! إنهم يجنون جميعًا فى النهاية ..

بعد هنيهة قال :

ـ « يمكننى تصعيد الأمر وعرضه على النيابة .. لكنى لست ميالاً إلى هذا .. فلسنا بصدد مشاجرة بالمطاوى (قرن الغزال) فى مقهى .. بل هو خلاف بين عالمين .. لهذا أسألك يا د.(رشدى) أن تتناسى الأمر .. »

ثم نظر لى .. وقال بلهجة مناشدة :

ـ « وأسألك أن تعتذر له يا د. (رفعت) ! »

هنا (أخذتنى العزة بالإثم) فواصلت تمثيل دورى ..

ـ « أنا ؟ أعتذر له ؟ أعتذر عن أى شىء ؟ أنا لم أكتب هذا الخطاب .. وعليه أن يعى ذلك .. وإلا فليفعل ما يروق له .. »

ـ « أرجو ألا تزيد الأمور تعقيدًا .. »

ثم نظر إلى د.(رشدى) مناشدًا من جديد :

ـ « هلم .. تنازل عن شكواك .. الأمر ليس بهذا السوء .. »

بعد دقائق وجدنا أننا أنهكنا الرجل أكثر من اللازم .. وكان الوقت قد صار مناسبًا لى كى أعتذر لا عن كتابة الخطاب .. بل عن ما سببته للرجل من صداع .. وقبل (رشدى) أن يتنازل بدوره ..

وهكذا انتهت هذه الجلسة المرهقة ..

وانصرفت و(رشدى) عدوين يتمنيان الدمار لبعضهما ..

ضربة أخرى تحت الحزام من شبيهى .. وهى ليست الأخيرة .. إن الغيث ينهمر بغزارة .. يمكنه أن يفعل كل شىء : خطابات غرامية للجارات المتزوجات .. خطابات تهديد للجيران .. خطابات تحوى السباب لزملائى فى العمل .. منشورات تهدد أمن الدولة يعلقها فى كل مكان ..

وفى جميع الأحوال يستطيع خبير الخطوط أن يؤكد ويقسم على أن هذا هو خطي ..

سوف أقتله .. لا أجد حلاً أكثر رقة ..

★ ★ ★

١١ ـ النســل ..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم .. لهذا ربما احتاج إلى البحث عن هذه النفس فى كل مكان مطروق ..

★ ★ ★

ولكن أين هو الآن ؟

ما دام لا يبحث عنى فعلى أن أبحث عنه ..

إن يوم الجمعة يقترب .. وبعده سيكون علىَّ أن أتحمل وجوده معى للأبد .. لكنه لن يحاول تعكير حياتى وقتها .. بل سيحاول إنهاءها !

لقد تجاوزنا مرحلة (المقالب) إلى مرحلة القتل .. علىَّ أن أجده سريعًا .. لكن أين ؟

★ ★ ★

هو قال إنه يقيم فى فندق ..

يمكننا هنا أن نستغل التشابه الشديد فى طباعنا ، لنتوصل إلى هذا الفندق .. هو فندق من النوع الذى يناسبنى .. نظيف .. صغير .. ثم هو فندق رخيص الثمن .. لأن إمكاناته المادية محدودة ..

أضف لهذا أنه فندق دان من بيتى .. ما دام الرجل يحوم حول منطقة سكنى بهذا الإفراط .. وهو لا يملك سيارة .. ولا يستعمل سيارتى فى المعتاد ..

وهكذا - وعلى طريقة (هولمز) الشهيرة - أمكننى أن أركِّز شكوكى فى ستة فنادق .. كلها تتمتع بالشروط الثلاثة ..

ورحت أجوّل بينها بالسيارة .. بعدما أعددت بعض احتياطات ضرورية ..

دخلت فندقين لأسأل عن (رفعت إسماعيل) .. وهو سؤال غريب طبعًا لو اتضح أن الرجل يقيم فى أحدهما .. (رفعت) يسأل عن (رفعت) .. سيجن موظف الاستقبال حتمًا ..

لكن الفندق الثالث أراحنى من عناء السؤال .. كان اسمه (فندق المهراجا) .. وهو اسم غريب لا يبعث الطمأنينة فى النفس ..

فما إن دخلت إلى ردهة المكان ، حتى وجدت موظف الاستقبال يمدّ يده - دون أن ينظر لى - ليلتقط مفتاحًا من اللوحة خلفه ، ويناوله لى دون اكتراث .. ثم يعود لمطالعة الجريدة التى أمامه ..

فهمت ! هذا هو الفندق المقصود .. والموظف يحسبنى أنا (رفعت إسماعيل) غير عالم - الأحمق - أننى (رفعت إسماعيل) !

للأسف فاتنى أن أعرف رقم الحجرة .. فاللوحة بها عدة مفاتيح ناقصة .. لهذا استجمعت شجاعتى وسألته أسخف سؤال ممكن :

- « معذرة ! غرفة رقم ..... ؟ »

ارتفع حاجباه فى دهشة .. ونظر لى هنيهة ثم قال :

- « رقم ستة وخمسين ! هل نسيت يا دكتور ؟ »

حاولت أن أبرّر موقفى بشرود الذهن .. حكيت له عن الأديب (تشسترتون) الذى وقف فى طابور البنك حتى وصل إلى الصراف .. عندها أدرك أنه نسى اسمه ! والتفت إلى الواقفين يسألهم : هل يعرف أحد اسمى من فضلكم(*) ؟

ابتسم الموظف ابتسامة باهتة .. إن هذه النكات الإنجليزية لا تناسب موظفى الاستقبال كما هو واضح ..

على كل حال لقد عرفت ما أريد ..

(*) حقيقة ..

وتهيأت للانصراف حين تذكرت .. تذكَرت أننى نسيت الرقم من جديد ! تبًا لعقلى الفارغ المتخاذل ! لقد أنستنى حكاية (تشسترتون) الرقم بعد دقيقة من سماعه .. لهذا التفت إلى الموظف من جديد :

ـ « سامحنى على وهن ذاكرتى .. قلت لى ما هو الرقم ؟ »

نظرة حيرة تبدَت فى عينيه .. أتراني أسخر منه ؟ فى النهاية قال نافد الصبر :

ـ « ستة وخمسون ! إنه مكتوب على المفتاح على كل حال ! »

ـ « شكرًا .. »

وصعدت فى الدرج .. لا بد أن الغرفة السادسة والخمسين فى الطابق الثانى .. ووجدت أرقام الخمسينات على الأبواب أمامى .. فسرت معها حتى وصلت إلى الغرفة المطلوبة ..

ليس (رفعت) هنا حتمًا ما دام مفتاحه مع موظف الاستقبال .. فلأدخل دون وجل .. كليك ! انفتح الباب عن وكر الأفعى ..

ودون تردّد خطوت إلى الداخل ..

★ ★ ★

لم تكن الغرفة آية فى النظام والنظافة ..

هذا طبيعى .. أليس هو (أنا) آخر ؟ ثم إن عاملة الفندق لا تنظف الغرفة إلا مرة واحدة فى الصباح ..

رحت أتأمل أشياءه فى فضول نهم ..

أكوام من الجريدة التى أقرؤها دون سواها .. ثيابى التى سرقها منى فى كل موضع ..

لا أعتقد أنه سيحتفظ بمالى هنا ..

وجوار الفراش وجدت علبة مميزة .. علبة أقراص (النتروجلسرين) إياها .. فهو مثلى يشكو من ضيق الشرايين التاجية فى سن مبكِرة نسبيًا ..

كان المقلب الأول فى ذهنى تمامًا ، وقد استعددت له منذ وقت مبكر ..

مددت يدى إلى جيبى وأخرجت علبة أقراص (الإفدرين) .. ثم إننى أفرغت محتويات علبة (النتروجلسرين) فى جيبى .. وملأت العلبة بـ (الإفدرين) ..

إنها مفاجأة غير سارّة لمرضى القلب عمومًا .. سيشعر بألم فى صدره ، ويحاول أن يخفف منه بقرص (نتروجلسرين) .. عندئذ يؤدى (الإفدرين)



لم تكن الغرفة آية فى النظام والنظافة .. هذا طبيعى ..
أليس هو (أنا) آخر ؟

عمله ويزداد العبء على القلب أكثر فأكثر .. ربما يؤدى إلى الوفاة أيضًا ..

الوفاة ؟

عندها توقفت .. تصلبت أطرافى .. ثم - لا شعوريًا - مددت يدى لأفرغ العلبة من (الإفدرين) .. إن القتل أصعب مما توقعت .. خاصة حين يكون قتلاً خسيسًا مخادعًا كهذا .. على كل حال إن علبة (نتروجلسرين) فارغة لأفضل وأقل ضررًا من علبة ملآى بسمّ زعاف ..

قرّرت أن أمرح قليلاً على طريقته ..

وهكذا قمت بإتلاف بعض الأشياء فى الحجرة .. وخدشت الجدران بقلمى .. ومزقت حشية الفراش ..، أتمنى أن أرى وجهه حين تطالبه إدارة الفندق بثمن هذه الإصلاحات .. إن فندق (المهراجا) هذا لا يقبل الشيكات طبعًا .. وبالطبع يحتفظ ببعض البلطجية لإقناع الرافضين من أى نوع ..

★ ★ ★

تأهبت للانصراف حين سمعت صخبًا خارج الغرفة .. أرهفت السمع .. فتبينت صوتى الوقور يتكلم

بالخارج .. والصوت الآخر كان موظف الاستقبال .. لقد وقعت فى الشرك !

كان موظف الاستقبال يكرّر فى حماس :

ـ « أقسم إنك أخذت المفتاح وصعدت لحجرتك منذ دقائق .. »

وكان (رفعت) يقول فى إصرار :

ـ « وهأنذا أمامك ! فهل وثبت من النافذة وعدت لأدخل من الباب ؟ »

ـ « أستغفر اللّه العظيم ! »

ـ « لن نظل هنا طيلة اليوم .. هل معك مفتاح آخر ؟ »

ـ « بالطبع .. لكن .. » ـ ثم فى استسلام ـ « أستغفر اللّه العظيم ! »

لم يكن هناك مفرّ من الاختباء ..

وراء الستائر ؟ لا .. إنه مكان أبله لا يناسب سوى أبطال مسرحيات (شكسبير) .. تحت الفراش ؟ سيكون فى هذا (بهدلة) لا بأس بها .. لكنه الحلَ الوحيد ..

وهكذا شرعت أزحف تحت الفراش ، ومددت

جسدى .. يا له من جسد ملىء بالعظام لم يخلق للنوم على الأرض !

وهنا سمعت صوت المفتاح يدور فى الباب ..

ـ « يا اللّه ! ماذا أصاب الغرفة يا سيـ ... ؟ »

ـ « لا عليك .. خذ هذا .. سنتفاهم فيما بعد .. »

ـ « لكن ..... »

وعرفت ـ من مكانى ـ أن جنيهًا قد استقر فى جيب الموظف ليخرس .. ثم سمعت صوت الباب ينغلق ..

لقد صار (رفعت) وحده هنا الآن ..

سمعته يصدر عبارات ذهول أو ضيق .. ثم غمغم :

ـ « فعلها اللعين ! »

كان يتأمل الخراب الذى قمت به .. ثم سمعت خطواته تدنو أكثر فأكثر .. حبست أنفاسى .. شعرت به يجلس على الفراش فوقى .. الملة تئنَ ..

ثم سمعته يقول بصوت هادئ :

ـ « هلمَ يا د. (رفعت) .. اخرج ! أنت لن تظل هاهنا ليوم الدين ! »

واصلت الصمت .. فشعرت بيده تتحسس الملاءة ..

وارتفع طرفها .. وعاد يكرّر إلحافه بذات الصوت الهادئ :

- « هلمّ .. أنا أعرف أنك هنا .. لا تجبرنى على الانحناء .. »

هنا لم أعد واجدًا نفعًا من البقاء فى هذا القبر ؛ فأخرجت جسدى بكثير من العناء .. وجلست القرفصاء على الأرض أنفض الغبار عن ثيابى .. بينما جلس هو فوق الفراش يتأملنى كأنما أنا شىء معتاد فى عالمه ..

سألته وأنا أنهض :

- « كيف عرفت ؟ »

بلا مبالاة قال :

- « أنا أعرف أنك صعدت ولم تهبط .. إذن أنت فى الغرفة .. ولا يوجد مكان للاختباء بالغرفة سوى تحت الفراش .. إن الاختباء وراء الستائر لا يناسب سوى أبطال مسرحيات (شكسبير) ! »

حقًا هو يفكر مثلى بدقة تامة ..

عاد يسألنى دون أن ينظر إلىّ :

- « هل جئت لتقتلنى ؟ »

- « ربما خطر لى هذا .. »

- « ... وجبنت .. أليس كذلك ؟ أما أنا فلن أجبن عن هذا .. لكن لا تخف .. لن أقتلك هاهنا لأن التخلص من جثتك مشكلة .. وعلى كل حال .. ما زلت أعتقد أنك سترجح جانب العقل .. ما زال يوم (الجمعة) ينتظرنا .. »

ثم تأمل فوضى الحجرة حوله .. وقال دون أن يبدو لوم فى كلامه :

- « أنت تضرب تحت الحزام .. »

- « مثلك ! والبادئ أظلم .. »

ضحك من قلبه حتى غرق فى نوبة سعال .. ثم سألنى :

- « كح كح ! هل ستكون هناك يوم (الجمعة) ؟ »

- « لا تعتمد على هذا .. »

ونهضت وسويت ثيابى .. واتجهت إلى الباب .. قال لى مذكرًا :

- « موظف الاستقبال سيطلب المفتاح منك .. »

- « سأعطيه إياه .. إنه معى .. هل نسيت ؟ »

- « وكيف أخرج أنا ؟ »

ـ « تلك مشكلتك ! »

وغادرت الحجرة دون تردّد .. ولم أنظر للوراء ..

ونظر لى موظف الاستقبال نظرة لن أنساها أبـدًا .. فأنا إنسان مجنون تمامًا لا يكف عن الدخول والخروج ، واستبدال بذلته .. دونما تفسير واضح ..

تجاهلت نظرته ، وغادرت الفندق ..

★ ★ ★

إن يوم (الجمعة) قادم بسرعة جنونية ..

إنه منتصف ليلة (الخميس) !

★ ★ ★

١٢ ـ لحظـة الحقيقـة ..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم .. وهذا مـن حسن حظه ..

★ ★ ★

دق جرس الباب فذهبت لأفتحه ..

كانت الإضاءة خافتة بسبب المصباح المكسور إياه .. لكن الضوء الخارج من شقتى كان كافيًا لأعرف مـن القادم ..

كان هو .. وقد بدا جادًا صارمًا .....

قلت له فى ثبات :

ـ « من قال إننى سأدعك تدخل شقتى ؟ »

ـ « أنا أعرف أنك ستفعل .. فأنت تريد معرفة سرّ قدومى .. »

كان صادقًا .. لكنى سألته :

ـ « جئت لقتلى طبعًا ؟ »

ـ « أنت أذكى من هذا .. أنا لا أريد جثثًا تشبهنى تسبب تساؤلات عديدة .. »

ثم تساءل حالمًا :

ـ « متى يخترعون وسيلة للقتل تزيل جثة القتيل من الوجود ؟ إننا بحاجة إلى مدفع (ليزر) يحوّل المقتول إلى بخار .. »

ـ « إن الرفاهية التى يقدمها العلم لن تقف عند حدّ .. »

ثم سمحت له بالدخول ..

ما أقبحنى ! لو كان هذا الشىء حقًا نسخة منى ، فإننى لا أجد سببًا يجعل حسناء كـ (ماجى) تتعلق بى .. أو فتاة عادية كـ (هويدا) تقبل بى عريسًا .. لا بد أننى ظريف أو رائع إلى حدّ مذهل .. بحيث تغطى جاذبية روحى على هذا القبح المريع ..

قال لى وهو يسترخى على الأريكة :

ـ « الحق أننى بدأت أرتاح لك يا (رفعت) .. يؤسفنى أن لقاءنا يوشك على الانتهاء .. »

ـ « أنت صادق فى هذا .. أحدنا ذاهب إلى الجحيم .. ولن يكون أنا ! »

تنهّد .. وقال وهو يفك رباطى حذائه :

ـ « إن الخلاص من نفسك لأمر عسير .. »

ابتعلت ريقى .. وقلت له وأنا أتحاشى نظراته :

ـ « دعنا نغادر الشقة .. سأدعوك إلى كوب من العصير فى مكان جيد .. »

ابتسم .. وتربّع على الأريكة قائلاً :

ـ « ولسوف تدسّ لى مسحوق (الديجتالا) فى العصير .. ثم تلقى بجثتى فى الصحراء .. أليس كذلك ؟! حذار ! فأنا أفكر بنفس طريقتك .. ولا يسهل خداعى .. »

أسقط فى يدى .. فسألته :

ـ « إذن لماذا أنت هنا الآن ؟ »

ـ « أردت أن أعاود إقناعك .. فما أدعوك إليه ليس بهذه البشاعة .. »

ـ « هذا عالمى .. وهذه حياتى .. ولا أنوى التخلّى عن أى شىء منهما .. »

قال وهو يمدّ يده فى سترته :

ـ « أنا أعرض عليك حلاً جذريًا .. »

وفى بلاهة رحت أرمق المسدّس المصوّب إلى رأسى .. مسدسى أو نسختة إذا أردنا الدقة .. وتصلب جسدى كله :

ـ « لا تكن سخيفًا .. أنت لن تطلق علىّ الرصاص ! »

ـ « لِمَ لا ؟ »

ـ « قلت إنك لا تريد جثثًا تشبهك .. »

ـ « هذا حق .. لكن أحدًا لن يجد جثثًا .. »

ـ « سيسمع الجيران الطلقة .. »

ـ « عندما أفتح الباب لهم ، وأقول إننى بخير .. وأن المسدس انطلق بينما كنت أنظفه ؛ عندها سيعودون إلى بيوتهم مغمغمين : يا للمجنون ! ثم ينسون كل شىء .. بعدها أحمل جثتك إلى السطح ليتمَ التبادل .. »

كان مخى يعمل كسيارة سباق ..

هذا كلام منطقى .. ومن الغريب أننى لم أفكر فيه عندما سمحت له بالدخول ..

عدت أسأله :

ـ « ولماذا لا تفعل ذلك الآن ؟ »

ـ « لأنى آمل فى أن تفعلها حيًا .. لست شغوفًا بقتل من يشبهنى إلى هذا الحدّ .. لكنى بالتأكيد سأضغط الزناد إذا استمررت فى عنادك .. »

نظرت إلى ساعتى ..

إنها الرابعة صباحًا .. ما زالت ثلاث ساعات تفصلنا عن الموعد المنتظر ..

وعلىَ أن أخدع هذا الوغد قبل فوات الأوان ..

ومرّت الدقائق بطيئة مملة ..

يبدو أننى جلست على الأريكة بعض الوقت فغبت عن الوعى .. ثم عدت لصوابى .. وتأملته .. كان جالسًا يقاوم النعاس بدوره .. والمسدس فى يده ..

أغمضت عينى من جديد .. وفتحتها فوجدته قد أغمض عينيه تمامًا ..

هل أثب عليه لأنتزع المسدس ؟

إنها مخاطرة .. ماذا لو كان حافز الخطر عنده قويًا .. وفتح عينيه وأنا على بعد مترين منه ؟ سيضغط الزناد بدون تفكير .. و .....

وعاد النعاس يهزمنى من جديد ..

لكنى كنت أعرف أن حرب النعاس سجال بيننا .. وأنه يصحو حين أنام أنا .. والعكس صحيح ..

وبدأ الضوء النظيف المنتعش يتسلل إلى الشقة ..

صياح الديكة من مكان ما .. وصوت الطيور تتشاجر على لقمة العيش ..


وصاحبنا قد نام تمامًا .. لكن المسدس لم يفارق يده ..

ونظرت إلى الساعة .. إنها السادسة صباحًا ..
وصاحبنا قد نام تمامًا .. لكن المسدس لم يفارق يده ..

أدركت أن علىّ أن أتحرك سريعًا .. فتوتره لن يجعله ينام أكثر ..

★ ★ ★

وثبت وثبة واحدة إلى باب الشقة .. ففتحته ..
وخرجت منه .. ثم أغلقته خلفى ..
وهرعت أصعد فى الدرجات إلى سطح البناية ، درجتين فدرجتين ..

لحسن الحظ لا أحد يصحو مبكرًا يوم (الجمعة) .. فليس هناك من يسألنى أسئلة مريبة .. ليس هناك سواى ..

فتحت الباب الخشبى ذا الصرير .. وخرجت إلى الفضاء الفسيح ..

هو ذا هوائى التلفزيون الخاص بى ..

الشمس محتجبة .. لكنى أعرف الشرق والغرب .. ويمكننى تخمين أن هذا هو الموضع الذى سيلمسه ظلّ الهوائى بعد دقائق ..

ألقيت قطعة قرميد فى المكان المذكور ..

ثم هرعت إلى الهوائى .. فجاهدت حتى انتزعته من مكانه .. كان مثبتًا إلى السور ببعض الحبال لم أجد مشقة فى قطعها ..

ثم حملته إلى موضع بعيد .. وأحكمت ربطه هناك ..

لم يأت شبيهى بعد ..

يحتاج إلى بضع ثوان كى يفيق .. ويهرع إلى الباب .. ثم يبحث عنى فى الطوابق السفلى لأنه يتوقع أننى هربت إلى الشارع ..

بعد هذا سيفطن إلى أننى لم أبرح البناية بعد .. وسيبدأ فى البحث عنى من أسفل لأعلى .. حتى يصل إلى السطح ..

ونظرت لساعتى .. ربع ساعة .. عشر دقائق على الموعد ..

أشرقت الشمس .. ورأيت ظلّ الهوائى ـ فى موضعه الجديد ـ يرتسم على أرض السطح .. إنها السابعة إلا دقيقتين ..

هنا انفتح الباب ..

ورأيت (رفعت) يدخل شاهرًا مسدسه ..

كان شرسًا .. نظرة الغضب الوحشية فى عينيه .. وإحساسه بأنه قد خُدع بشكل ما .. ولو لم يكن يخشى تأثير الموت على انتقال الجزيئات ؛ لأفرغ رصاصة فى جسدى فورًا .. لكنه كان يخشى أن يفسد شيئًا ما بقتلى ..

قال لى بصوت لم يفارقه النعاس تمامًا :

ـ « كانت محاولة حمقاء .. والآن تحرّك .. فقد حان الموعد ! »

قلت وأنا أتراجع للوراء :

ـ « لن أفعل ! »

ـ « اسمع .. لم يعد الوقت يسمح بالمزاح .. هيّا ! »

قالها وازداد عصبية .. للمرة الأولى لا يبدو واثقًا من نفسه إلى هذا الحدّ .. وتقدّم نحوى .. ببطء .. ببطء ..

بدأت أتراجع بدورى إلى البقعة المحدّدة .. حيث سقط ظلّ الهوائى ..

خطواته تقوده نحو قطعة القرميد ..

إنها السابعة تمامًا ..

توقف لحظة .. نظر حوله .. فتراجعت إلى الوراء أكثر .. صار الظلّ فوق صدرى ..

انتظر هنيهة .. ثم نظر للسماء .. وغمغم فى شك :

ـ « غريب ! لم يحدث شىء .. »

ـ « لعلها فوارق التوقيت بين الكوكبين .. »

ـ « كلا .. إن الموعد فى السابعة بتوقيتكم هنا .. »

وعاد ينظر حوله .. ثم غمغم فى شك أكبر ، وهو يركل قطعة القرميد :

ـ « لحظة ! هل قمت بتحريك الهوائى من موضعه ؟! »

والتمع الفهم فى عينيه :

ـ « أنت حركت الهوائى من موضعه ! »

وهنا شعرت أن الهواء مشحون كأنما عاصفة رعدية تدنو .. وفى اللحظة التالية رأيت جسده يتحول إلى لون أزرق باهت .. ثم بدأت ظلال سوداء تزحف لتغزو اللون الأزرق .. وازداد اللون شحوبًا ..

لقد صار جسده شفافًا تمامًا .. ثم .. لم يعد هناك شىء ..

اختفى (رفعت إسماعيل) من أمام عينى ..

اختفى من الوجود فى ثانية واحدة ..

لقد كان الاسترداد ناجحًا ودقيقًا .. وعاد الرجل إلى عالمه مرغمًا ..

ولحسن الحظ لم يفهم الجزء الأخير من اللعبة إلا بعد فوات الأوان ..

* * *

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم ......

شكرًا لله ... !

* * *

الخاتمة

هذا هو كل ما أستطيع قوله عن هذه القصة ..

أشبه شيء هى بهلوسة فى عقل أضناه المخدر أو الإدمان .. لكنها حقيقة واقعة ..

ولقد احتجت إلى جهود كونية ، كى أصلح كل الخراب الذى تركه الوغد فى عالمى قبل أن يرحل ..

تحججت لدى البعض بإرهاق أعصابى .. أو بحيرتى .. أو بمرضى النفسى .. أو بخرقى وغبائى ..

المهم أننى خسرت كثيرين لم يقبلوا مبرراتى ..

ولطالما دعوت اللّه ألا يعود ذلك المأفون إلى عالمى .. وإن كنت أستبعد عودته ، فاجتياز العوالم الموازية ليس حقًا من حقوق الإنسان يمارسه متى شاء .. ثم إننى أعتقد أن لدى الرجل مشاكل جمة فى عالمه .. مشاكل أعقد مما حكاه لى .. ربما هو متورط فى جريمة ما أو مأزق ما .. هذا هو المبرر الوحيد لحماسه الشديد كى يجعلنى أعود بدلاً منه ..

على كل حال لم يجل بخاطرى قط أننى قد أكون مرعبًا إلى هذا الحدّ ..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم .. ومن الأفضل لنواميس الطبيعة ألا يحدث هذا أبدًا ..

★ ★ ★

والآن ـ بعد هذه المغامرة القصيرة ـ يمكننا العودة إلى روتين الحياة المعهود ..

وسأبدأ بتقديم قصة أخرى عن اثنين من عالم مواز آخر ..

(سالم وسلمى) .. هل نسيتموهما ؟

إن لدى قصة جيدة قاما بها هى (أرض المغول) .. وهى تتحدّث عن عالم لم يظهر فيه (قطز) .. ما هى النتيجة ؟ النتيجة هى عالم يحكمه المغول بأكمله بقبضة لا تلين .. ووحشية غير مسبوقة ..

ولكن هذه قصة أخرى ..

د. (رفعت إسماعيل)

القاهرة

ماوراء الطبيعة
روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة
روايات مصرية للجيب

أسطورة رفعت !

هناك مسوخ ومسوخ ..
مسوخ تزأر فى الغابات المظلمة .. ومسوخ تنتظر فى أعماق المحيط .. ومسوخ تفتح أبواب المقابر ليلاً .. ومسوخ تفتح عيونها فى ظلام معمل ما .. لكن أشنع مسخ يمكن للمرء أن يلقاه .. هو نفسه !



د. أحمد خالد توفيق

الثمن فى ... ١٥٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم :
أسطورة أرض المغول